
خلق الموتى
مدونة ابو عبدو
ممدوح رزق
رواية



المشرف العام

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

لوحة الغلاف : Salvador Dali - The Face Of War

المراسلات :

باسم المشرف العام ـ المنصورة – حى البدماص – طارق بن زياد – أحمد فؤاد سابقا

ت : ٢٣٢٦١٤٧ / ٠٥٠ ـ ٠١٠١٠٨٥٧٣٧

الذين يزرعون بالعرق
يحصدون بالابتهاج

على صدر صفحات أول مجموعة قصصية (بيت النسيان) ضمن سلسلة " إبداع الحرية " فى ١٩٩٥،أذكر أني قلت : إن أصحاب النوايا الحسنة ، يتسءلون دائما عن الحلقة المفقودة بين الأدب الحى والنقد الرائي المؤسس على قاعدة علمية ، مؤطرة بشآبيب كرمة الوجدان الإنساني .

أضفت : إن سلسلة " إبداع الحرية " تدعو من نافذتها المفتوحة جميع من يعشقون الاخضرار ، إلى إثمار أدب إنقلابى .. أدواته وعي طرقات المعاول ، ويقظة ضربات الفؤوس ، وزغاريد المناجل حين تهفهف راقصة على سيقان القمح ، تحت نسمات ليالى الحصاد .

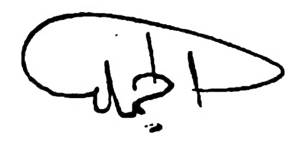
واليوم ..

بعد أن سهرت منكباً على مراجعة نصوص اثنين وخمسين عنوانا ، توزع كل منها بين القصص والشعر والرواية والنقد ، وبعد أن تجاوزت سني السبعين .

ولأجل أن تظل أشرعة إبداع الحرية معبأة بأنوار مشاعل

التقلم على درب حدائق الأدب و الفنون ، فلم أر فارساً جديراً يحمل مسئولية الاضطلاع بأعباء رسالة السلسلة ، سوى الشاعر الكبير مصباح المهدي ، فعلى صدره تلين صخرة القلوب ، ولتفتح على يديه حدائق القادمين فى عرس الإبداع .

أما أنا .. بعيدا عن الانسحاب - سأظل شاكراً لهذه السلسلة التى قدمت لساحة الفن والأدب عشرات المبدعين الذين أصبحوا من فوارس الكلمة .



إهداء

إلى أبي ...

مرة أخرى

وربما لن تكون الأخيرة

ممدوح

فلنغلق أعيننا برهة
ليمكننا أن نسمع الأم وهي تغسل الأطباق في المطبخ
ليمكننا أن نسمع السكاكين والشوكات وهي تسقط في الدرج
ليمكننا أن نسمع حفيف ثوبها في الممر
وابتسامة السيدة العذراء تطوف بحاجز الأيقونات
في الغد لن نكون مرضى بعد. أنظر في الترمومتر
ما يزال دافئا من إبطنا
أبانا الذي في السماء
فلتقل لإبنة عمي الصغيرة أن تأتي غدا
كي نستطيع أن نقوم بنزهة قصيرة في الغابة مع الأيل
سأجمع لوزا طازجا لها
أيل أزرق سيأتي ياأبانا
لنستطيع النوم
أيل أزرق أزرق
ياأبانا
الذي
في السماء.

يانيس ريتسوس

أعرف يا أبي أنك أنت الذي فعلتها .. أنت الذي تركت الرسالة التي فوجيء بها صباح اليوم أعضاء وزوار منتدى (أضواء المنصورة) وأبلغتهم فيها أنك قمت بالاستيلاء على المنتدى .. كانت الرسالة مكتوبة بالأبيض على صفحة سوداء وبخط Tahoma بينما العنوان والتوقيع بالأحمر .. لديك تصور شخصي عن دلالة هذه الألوان وهذا النوع من الخطوط .. كنت تعتبرها دائما رموزا منسجمة تعبر في كافة تشكيلاتها عن نفسك وعن الحياة والموت والألم .. أعرف أنك أمضيت السنة الفائتة من حياتك في تعلم القرصنة الالكترونية، كما أنك أخبرتني منذ أسبوع تقريبا بأنك تعد مفاجأة رائعة وضرورية لأحد منتديات المنصورة .. (احتمال مستبعد يرحب بكم) .. ما قلته بعد ذلك لم يكن كله صدقا .. صحيح أنك من سكان المنصورة ، وصحيح أنك تجاوزت السبعين ولكنك لست أرملا .. أمي جالسة الآن أمام البحر في (شرم الشيخ) بصحبة زميلاتها من معلمات (ميت حدر الابتدائية) واللاتي أصبحن على المعاش مثلها .. أمي ذهبت معهن هذه السنة إلى الساحل الشمالي ثم رجعت إلى البيت بعد شهر ونصف، وعادت بعد أسبوعين لتسافر معهن إلى (الغردقة) ومنها إلى (شرم الشيخ)، وكل ما يشغل بالهن الآن غير الاستمتاع هو التحضير لرحلتهن القادمة إلى (باريس) .. صحيح أن لديك ابن وابنة، ولكنني لست عاطلا عن العمل ولا أعيش حتى بعد تجاوزي الثلاثين على فلوسك، كما أن شقيقتي ليست مريضة بإحدى المصحات النفسية .. أنت تعرف أنني عازف ترومبيت بفرقة (جاز) وأنني أصدرت مع أعضائها العديد من الألبومات والسيديهات الناجحة، كما أننا نقيم حفلات رائعة داخل مصر وخارجها .. أما شقيقتي فهي فنانة

تشكيلية جميلة تعيش في القاهرة مع زوجها مدرس الفلسفة بإحدى كليات الآداب ومع أطفالها الرائعين .. صحيح أن لديك صديق واحد، ولكن هذا الصديق ليس مدمن مخدرات ولم يخسر كل الوظائف التي عمل بها ولم يطلّق زوجته ولم يهمل أولاده، ولا يقضي وقته متسكعا في الشوارع والمقاهي ولا يعيش على مساعدات الآخرين .. صديقك يا أبي باحث في تاريخ الكوميديا ويمتلك دار نشر متخصصة في هذا المجال ولم يتزوج أبدا .. أنت لم تخضع لعملية قلب مفتوح ولا لأي عملية أخرى كما ذكرت في رسالتك .. بالعكس .. أنت لا تزال متمتعا بصحة جيلة جدا، وتمتلك جسدا قويا نجحت في الاحتفاظ به في هذا السن نتيجة عادات غذائية ثابتة ظللت ملتزما بها طوال حياتك، وأيضا لأنك لم تدخّن أبدا ولم تشرب القهوة إلا نادرا كما أنك واظبت لسنوات طويلة على أخذ مقويات مختلفة للقلب والمعدة والعظام ولكل أجهزة جسمك كي تؤخر شيخوختها لأطول وقت ممكن .. تريد يا أبي أن تخبر الناس بحكاياتك الكثيرة ولم ترغب في نشرها بكتاب أو بمدونة إلكترونية أو من خلال منتديات الإنترنت مثلما يفعل الآخرون عادة .. هذه الطرق أنت تراها مستهلكة جدا ولا يحصل مستخدموها إلا على قراءات قليلة عابرة وتعليقات مجاملة سريعة ثم نسيان تام .. قررت يا أبي أن يرتبط نشر حكاياتك بفعل صادم ومثير يظل حيا في الأذهان كاختراق منتدى على الإنترنت .. أنت تحب المنصورة جدا وترتبط بها ارتباطا روحيا لا يمكن وصفه، ولها حضور قوي في الحكايات التي تنوي نشرها، وهذا سبب اختيارك لأحد منتدياتها كي تنفذ من خلاله فكرتك .. ذكرت يا أبي أن هذه الرسالة للتعارف فقط ولتكوين خلفية مشتركة بينك وبين القراء عن ما هو قادم

مؤكدا بأنهم سيمتلكون أسباباً قوية للاستمرار في متابعتك بعد نشر الحكاية الأولى .. في الفترة الأخيرة كنت تقرأ يا أبي لـ (كيركيجور) كثيرا وهذا ما يفسر وضعك لإحدى مقولاته في نهاية الرسالة :

(أنا أغز الوجود بإصبعي فلا تفوح منه سوى رائحة العدم .. أين أنا ؟ .. ما هو هذا الشيء الذي أسميه العالم ؟ .. ما الذي أغراني بهذا الشيء وتركني الآن هنا ؟ .. كيف جئت إلى هذا العالم ؟ .. لماذا لم أستشر ؟ .. لماذا لم أتصل اتصالا مباشرا بعاداته وتقاليده بل قذف بي في قلبه كما لو كنت قد جيء بي من عند تاجر رقيق ؟) ...

سوف يحتاج أعضاء وزوار المنتدى الذي قمت بالاستيلاء عليه إلى الانتظار وقراءة الحكايات التي أخبرتهم أنك ستبدأ قريبا في نشرها تباعا ليكتشفوا الصلة التي تربط بينها وبين مقولة (كيركيجور)، وأيضا للتوصل إلى المعنى الكامن وراء الاسم الذي اخترته يا أبي لنفسك كي تخاطب الناس من خلاله : (احتمال مستبعد) .

* * *

لن أغضب لأننى أكتشفت بالصدفة أنك تبعثين برسائل لشخص ما تنتهي دائما بـ (أرجو أن تتصل بى)، ولن أشفق عليك لأنك اقتربت من الخمسين دون أن تمس جسدك شهوة رجل، ولن أنصحك بتوخى الحذر من مشاعرك .. سأصمت كأننى لم أعرف شيئا .. بتأكد أن القصة المعتادة لابد أن تحدث بشكل أو بآخر، ولا تقلقي .. ستجدينني هناك .. عند الشاطئ الذى انتظرت أمامه سنوات طويلة بعد أن ألقيت زجاجات كثيرة فى البحر

بداخلها رسائل انتهت دائما بـ (أرجو أن تتصلى بى) .

* * *

انتهيت اليوم من الإجابة على أسئلة حوار صحفي عن كتابي (السيء في الأمر) .. عرضت أفكاري باختصار بدا لي مرضيا عن سلطة التصنيف وتجاوز شروط الإرث النوعي والترادف بين النص والكتابة التي حلت محل أصنام الشعر والروايات والأقاصيص بتعبير (لوكليزيو) .. على جانب آخر تمسكت بالحد الأدنى من التهذيب في الرد على السؤال المتعلق بالمشهدين الشعري والسردي واحتمال أن تتسبب كلمة (نصوص) المكتوبة على غلاف كتابي في استبعادي منهما .. قلت أن المشهد ما هو إلا معرفة زائفة تنتجها سلطة الذين يديرون الحياة الأدبية المصرية من داخل الغرف الصحفية ودور النشر والمقاهي الشهيرة وقاعات الندوات والمؤسسات والمراكز الثقافية وشوارع الانترنت، وأنني حرصت دائما وبقدر ما أستطيع على الإقامة خارج العالم الخرافي المحكوم بالمثل الشعبي الذي يبدأ بـ (الصاحب له عند صاحبه إيه ؟ ....) .

* * *

على الجدار ساعة حائط تحمل وجه (وودي آلن) .. يخرج منها صوته الهازيء المتوتر عند كل ٣٥ دقيقة تمر على آخر استمنله لي ويقول :

(I need the *eggs*)

* * *

(You have 0 messages) .. عازف الترمبيت يقول لكم تصبحون على خير إذن .. لو استيقظت .. سأستيقظ كما أنا .. لا أصلح لشيء .

* * *

سأذهب إلى أبي .. هو يجلس في جامع (السنجق) الآن مستندا إلى عاموده المفضل في الوسط حيث يصبح مركز الكون .. حين أجلس بجواره لن يلتفت ناحيتي ولن تتوقف أصابعه عن التدوير الرتيب لحبات (السبحة) وستظل رأسه محنية وعيناه مرتعشتين بتثاقل ...

(على فكرة .. أنا ليست عندي مشكلة أن تكون (هاكر) أو أي شيء آخر طالما أنه لا أحد يعرف شخصيتك الحقيقية ولكنني لا أريدك أن تصدق نفسك وتظن أنك لست مكشوفا بالنسبة لي .. أنت تعرف جيدا أن التعاطف الذي يمكن أن تحصل عليه من الناس نتيجة آلامك التقليدية المملة سيكون هشا وضعيفا وقصير العمر ولن يضمن لك استمرارهم في متابعة حكاياتك .. الناس ليست في حاجة لأن تعرف أنك وحيد وخائف وخيبة الأمل تقتلك .. الناس تريد مصائب وكوارث محددة وملموسة بوضوح وأنت أعطيتهم هذا : قلب مريض .. زوجة ميتة .. ابن عاطل .. ابنة مجنونة .. صديق مدمن.

تعرف أن هذا سيجعل تعاطف الناس معك قويا، ورغبتهم في متابعة حكاياتك لن تنتهي لأنهم بالتأكيد سيظلوا طوال الوقت متشوقين ويريدون معرفة آخر أخبار صحتك المعتلة وفضائح ابنك العاطل وابنتك المجنونة وصديقك المدمن والتي بالتأكيد تنوي حشرها في حكاياتك كي يستمر الناس

في القراءة لك) .

الآن سيلتفت ناحيتي وستتوقف أصابعه عن تدوير (السبحة) ورأسه المحنية سترتفع قليلا بما يسمح لعينيه المرتعشتين بتثاقل أن تنظرا في وجهي .. سيحاول أن يضيف ابتسامة إلى ملامحه لكنها ستخرج في شكل اختلاجات خفيفة تتناثر بوهن حول شفتيه للحظات قبل أن تضيع تماما .. حين يتكلم سيبدو كأنه لم يشرب الماء منذ سنوات طويلة :
(هل جربت الفرح برسالة الترحيب الآلية التي تظهر لك بعد تسجيلك في منتدى أو عندما يرسل لك هذا المنتدى رسالة تهنئة على الإيميل يوم عيد ميلادك ؟ .. حينما تكون في أشد الحاجة للتحدث مع أحد وتتصل بصديق؛ هل لاحظت نبرة السخرية في صوت المرأة التي تخبرك بأن " الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقا، من فضلك حاول الاتصال في وقت آخر " ؟) .

شعرت أن أمرا ما بيننا قد اكتمل ولم يعد يحتاج للمزيد من الكلام .. هو نفسه عاد إلى وضعه السابق الذي كان عليه بعد أن أنهى حديثه .. قررت أن أنهض وأتركه ولكنني حينما ابتعدت عنه بخطوات قليلة فوجئت به يناديني .. عدت إليه دون أن أجلس .. رفع عينيه إلى وجهي وقال بما يشبه الرجاء : (الصلاة ستبدأ الآن وأنا أريدك أن تصلي معي .. هل تعرف كم مضى من السنوات دون أن تصلي صلاة واحدة ؟ .. الآن أنت في المسجد وهذه فرصة من أجل خاطري استغلها .. صدقني أنا خائف عليك من الحساب والنار .. انتظر كي نصلي معا .. والنبي) .

كل ما انتمى إلى هذه اللحظة كان أقوى من التجاهل والرفض : كلماته .. نبرة صوته .. نظرة عينيه .. تعبير وجهه .. عدت للجلوس بجواره منتبها إلى شعور بالارتياح والسرور اكتست به ملامحه ..

أخرج جميع المصلين بما فيهم أبي نسخة من (نادي القتال)، ولأن الصلاة لم تكن في نيتي أو توقعي فلم يكن معي نسخة الأمر الذي جعلني أشارك أبي القراءة من نسخته .. وقف الإمام وراح يقرأ ونحن نردد وراءه كيف اضطر (تايلر) لاستخدام الدهن المشفوط من أم (مارلا) في صنع الصابون للاستفادة من ثمنه في غسل الملابس ودفع الإيجار واصلاح الثقب في خط الغاز بعد أن كانت (مارلا) تنوي استخدام هذا الدهن مستقبلا في حقن شفتيها بالكولاجين .

* * *

هل كان يجب أن نتكلم أنا وأبي في أي شيء ونحن نسير معا بعد خروجنا من الجامع ؟ .. هل كان أي منا يحتاج لأن يقول شيئا ما للآخر ومع ذلك قرر أن يظل صامتا مخبئا خوفه واضطرابه ويأسه من جدوى الكلام ؟ .. سرنا طويلا وكنت أشعر به وهو يمشي بجانبي ببطء معتاد أنه يريد أن يقف فجأة ويخبرني أنه لا يفهم شيئا .. قلت في نفسي أنه ربما يشعر بي أيضا وبأنني كذلك أريد أن أفعل هذا مثله .. الوجوه كثيرة جدا والأصوات متداخلة وصاخبة للغاية وجميع الأشياء تبدو وكأن مهمتها هي التشويش على ذاكرة كل منا .. الذاكرة ليست كيانا متماسكا أصلا حتى تحتاج لتشويش يضعفها ويلقيها خارج حجرة التعذيب التي تسمى بالجسد .. الأشياء مهمتها أن تفضح التشوش

الأصيل الكامن في الذاكرة منذ بداية تكوينها والمتزايد بشراسة مع استمرارها في العالم .. لماذا كان علينا أن ننتظر شيئا مهما ونافعا من الذاكرة ؟ .. ما الذي يجبرنا دائما على أن نظل متأكدين من أن الماضي مهما كان بعيدا أو قريبا ليس إلا معطيات بديهية واضحة لحقيقة ستمنح كاملة لنا بتلقائية هادئة قبل الموت ؟ .. أو عند الموت ؟ .. أو بعد الموت ؟ .. لماذا لا نعتبر الذاكرة ليست سوى أجزاء متناثرة لمزيج رخيص من الخدع الوقحة ؟ .. رغم الحنين .. رغم الرغبات المتوسلة القاسية في العودة إلى الأيام القديمة التي كانت تسمح باحتواء الأحلام الجميلة ورعايتها .. الأيام الخبيثة التي برمجت أرواحنا على الأمل في المستحيل وهي تعرف أنه مستحيل .. كيف تكون الأحلام جميلة رغم علم وجود فرق بين أن تتحقق أو لا تتحقق ؟ .. في جميع الأحوال لا شيء يمكنه تحويل كل منا إلى إله محصن ضد الخيانات المتنكرة .. كل ما حولنا كان يهدم نفسه بنفسه ويهدمنا معه ولم يكن في الأمر أي نوع من المفاجأة .. هذا ما يحدث طوال الوقت منذ البداية وسيظل مستمرا حتى النهاية .. المحتمل فقط هو أن ينتبه لذلك شخص ما يسير مع أبيه أو مع ابنه دون أن يتكلم فيعرف أثناء السكوت أن العدم موجود وقادر على كل شيء .. يصطدم بالغفلة التي تبقيه صامتا وبلا أي انفعالات ظاهرة .. أنا وأبي أكثر اثنين في العالم الآن عاريين من الحقائق الصغيرة التي يحتاج أن يصدقها كل كائن ليحافظ في يقينه على وجود غاية غيبية كبرى وبالتالي يصدّق أنه ليس غافلا .. أنا وأبي محرومان الآن من تصديق كل شيء .. هل يجب علينا الآن أن نجري مثل (فورست جامب) عسى أن نتحول لشيء آخر غير أن يكون كل منا محض ريشة متاحة كليا لمشيئة الهواء ؟ .. الأم .. حبيبة الطفولة .. إلفيس

بريسلي .. الشكولاتة .. الرجبي .. حرب فيتنام .. تنس الطاولة .. صيد الجمبري .. الحكي للغرباء في محطة انتظار الباص .. أنا وأبي لدينا أيضا الأسباب الكافية للجري دون توقف مثل (توم هانكس) .. لكننا لن نجري .. توقفت فجأة ولا أعرف لماذا قررت أن أتركه الآن ...

- أنا هسيبك دلوقت

- إنت هتسيبني في شارع زحمة زي ده .. مش تستنى معايا شوية على الأقل لغاية ما توصلني الجنة؟!

لما يقلها بلسانه ولكن قالها بعينيه وبملامحه وبابتسامته الصغيرة المتعبة والمرتبكة التي التفت بعدها ليكمل سيره مبتعدا ببطء وسط الناس .. واصلت المشي في اتجاه آخر مثبتا نظراتي لأسفل حيث تخطو قدميّ المرتعشتين .

* * *

أشجار ذابلة ..عواميد إنارة مطفأة .. شوارع ضيقة تصلح لحروب منتظمة .. نوافذ تبتسم بقسوة لحظة إغلاقها .. عينان تخصان قرصان إنترنت عجوز تحاولان قياس زوايا السماء .. بحثا عن نفق سري يؤدي إلى البورتريه المفقود .

* * *

أهلا ومرحبا بكم

أنا أقوى دليل على أن الآباء لا ينفصلون عن الحياة الواقعية لأبنائهم بعد

الطفولة .. على سبيل المثال؛ لو سأل أحدكم ابني العاطل والذي يعيش على فلوسي حتى بعد تجاوزه الثلاثين ؛ ما هي أكثر الذكريات جمالا التي تحتفظ بها لوالدك والتي لا يمكن أن تنساها أبدا سيحكي لك الآتي :

كان لا يزال في المرحلة الإعدادية، وفي أحد أيام شهر رمضان وقبل الإفطار بساعة تقريبا ناديته وقلت له : البتاع فين ؟

سألني : بتاع إيه ؟ ...

ـ البتاع ياله ؟

ـ أيوة بتاع إيه مش فاهم ؟

ـ البتاع بقولك ...

ـ والله العظيم معرفش انت عايز إيه

لم أستطع تحمّل الشلل المهين لذهني العاجز عن تذكر اسم الشيء الذي أريده .. كل ما كنت متأكدا منه أن هذا الشيء موجود في البيت والكل يستخدمه .. لم أتمكن من الصمود أمام عدم المساعدة الفورية من ابني العاطل الذي فشل في فهمي وبالتالي في حمايتي من هذا الاستعراض البائس والمخجل لضعف ذاكرتي .. وجدت نفسي ألطمه على وجهه بقوة مشحونة بغضبي الهائل من انعدام الحيلة .. ظل واقفا ينظر إليّ بمزيج ثقيل وحاد من الألم والذهول والرغبة في قتلي .. هنا أريد التأكيد على أنني استخدم بالفعل الألفاظ المناسبة التي تعطي الوصف الصحيح للأمر كما حدث وليس مجرد تصور أو تخيل له لأنني أعرف جيدا ماذا أقول .. رأيت تفاحة آدم ترتجف في رقبته وعينيه ترتعشان بلمعان دموع مكتومة بينما نظرته الانتقامية تفترس ملامحي .. أسرع نحو حجرته وارتدى ملابسه وخرج من البيت دون أن يتكلم

كلمة واحدة ودون أن يلتفت إلى أمه التي حاولت أن تهدئه وتطيب خاطره وتمنعه من النزول في هذه الساعة التي لا يفصلها عن الإفطار سوى وقت قليل .. هل تظنون أن مغادرته المنزل جعلته غائبا عني ؟ .. لو كان هذا ظنكم حقا سيسعدني جدا أن أخيبه لأنني سأحكي لكم بمنتهى الدقة ما حدث لابني بعد خروجه من البيت :

نظر في ساعته فوجد أنه لا يزال على موعد الإفطار ما يقرب من ساعة إلا ربع .. لم يكن يريد أن يتكلم مع أي أحد لذا قرر أن يقضي الوقت المتبقي في التمشية على أن يذهب إلى أحد المطاعم قبل آذان المغرب بدقائق قليلة .. توجه ناحية كوبري (الهابي لاند) ومنه إلى كوبري القطار سائرا نحو (طلخا) .. مشى بمحاذاة كورنيشها الهادىء المزين بالأشجار وأحواض الزهور حتى وصل إلى كوبري السيارات فدخله عائدا إلى (المنصورة) .. لماذا لا يعيد اتباع نفس المسار ؟ .. سار مجددا نحو كوبري (الهابي لاند) ومنه إلى كوبري القطار عائدا إلى (طلخا) .. كرر هذا الدوران الذي لم يجد له سببا معينا ثلاث مرات، وخلالها لم تكن صفعتي هي كل ما يشغله بل استحوذت أشياء أخرى على تفكيره ربما كانت هذه الصفعة التي ظل صدره محتفظا بنارها سببا في جعلها تنشط بقوة .. كان يفكر تقريبا في كل شيء .. أنا وأمه وإخوته وأصدقائه ودراسته والبنت التي يحبها والتي لم يتبادل معها كلمة واحدة حتى الآن ولا يعرف أصلا هل تبادله الحب أم لا .. كان يفكر في الماضي وفي كافة الذكريات التي لابد أن تستدعيها وتكشف عن جروحها صفعة كتلك .. ذكريات معي ومع المدرسين ومع زملائه في المدرسة وفي قصر ثقافة الطفل .. لم يكن يشعر بالوحدة فحسب بل على نحو أشد مرارة كان يشعر أنه أعزل ..

أنه كان دائما ولا يزال فاقدا للصلابة التي يراها متوفرة لدى الآخرين وتجعلهم يحصلون على ما يريدون ويدافعون عن أنفسهم كما يجب .. شعر أيضا باليأس مع إدراكه أن تاريخ المهانة الذي كان يجب عليه تعويض هزائمه وإخفاقاته، وبالتالي اعتباره كأنه لم يكن ؛ أن هذا التاريخ لا يتوقف عن ترسيخ وجوده حتى هذه اللحظة .. ليس هناك أي انفصال بين الماضي وبين الحاضر بل على العكس لا يزال الماضي يمعن في تثبيت جذوره بواسطة هذا الحاضر .. هل سأمتلك الوقت الكافي والقدرة الكافية مستقبلا لإزاحة هذا الركام العنيد والمتزايد من داخلي ومحوه من العالم ؟ .. لم يكن واثقا وكان لديه ما يكفي من الأسباب التي تبرر عدم حيازته لهذه الثقة .. لكنه كان أيضا مبتهجا بشكل ما .. وجد شيئا جميلا في مغادرته البيت في وقت كهذا، ودون اعتبار لأي شخص ولأي قيمة خاصة الإرث الروحي لتجمع الأسرة على منضدة طعام واحدة وقت الإفطار كلحظة طيبة ومقدسة يصعب على الإنسان عدم احترام حميميتها الخاصة .. وجد في هذا الفعل شجاعة من نوع ما .. عدم استسلام وقدرة على التمرد وعدم الخضوع .. أحس فجأة أنه التجسيد الواقعي للبطل السينمائي في صورته المعروفة، الذي يحمل دائما ملامح متجهمة - تجاوز الولد مضطرا هنا في تصوره الضرورة التقليدية لوسامة البطل - وينظر إلى أشياء العالم بعمق بينما يرتحل بمفرده في فيلم ما، ويجوب بلاداً مختلفة ويقابل بشرا مختلفين، ويتخطى كافة الأخطار والمصاعب بفضل قوة إرادته مستعملا ذخيرة لا تنفذ من المهارات الشخصية والذهنية - جسدية لا طبعا - وعزيمة فولاذية يقهر بها أعدائه .. هل تتصورون أن تقمصه لدور البطل أوصله لتخيل موسيقى تصويرية تصاحبه وتتلائم مع هذه الحالة

بينما يسير بجوار أشجار (طلخا) المتاخمة للنيل تحديدا الأمر الذي دفعه لأن يزيد المشهد إحكاما بتثبت عينيه على النظرة المتحدية الحزينة التي تلزم كل بطل متأنق بالوحدة وبالشجن الباطني، ويحمل من الذكريات والتجارب والهموم ما يكفي لجعله أسطوريا ونبيلا .

نظر في ساعته .. دقائق قليلة على المغرب .. توجه إلى مطعم (كشري عبده) بشارع (العباسي) .. أكل في هذا المطعم من قبل مع أصدقائه .. وجد كافة الطاولات مشغولة ولا مكان له .. ظل واقفا في منتصف المطعم وقد بدأ يشعر بالتوتر تحت وطأة إدراكه باقتراب موعد الإفطار وعدم معرفته لمطعم آخر قريب يمكنه التوجه إليه سريعا قبل الآذان .. لم يواجه هذا الموقف من قبل أبدا .. أن يأتي موعد إفطار رمضان دون أن يعرف أين سيأكل .. تسارعت دقات قلبه وهو يرى الجرسونات يتحركون بسرعة بين الطاولات حاملين أطباق الطعام المختلفة وأكواب العصائر فراح يتلفت بحيرة وارتباك متوسلا العثور على كرسي شاغر .. (الله أكبر .. الله أكبر) .. فجأة رأى في زاوية بعيدة طاولة يجلس عليها ثلاثة وبجوار أحدهم مقعد خالي .. أسرع إلى هناك كأنما عثر على ما سينقذه من الموت بينما صوت الآذان يتواصل من الجامع القريب .. لم يسأل أو يستأذن بل جلس على الفور فنظر إليه الثلاثة في وقت واحد بفضول وتمعن .. أبعد عينيه عن عيونهم وبدأ يتابع أي جرسون من الذين لم يتوقفوا حتى الآن عن التحرك بخفة بين الطاولات كي يطلب منه الطعام .. انتهى الآذان وبدأ الثلاثة الذين يشاركونه الطاولة في الأكل .. كل الجالسين في المطعم بدأوا في الأكل ما عدا هو الذي لم يأت إليه أحد ليسأله عن طلبه أصلا كأنه غير مرئي .. لم يتوقف الثلاثة الذين

يشاركونه الطاولة عن التطلع إليه حتى وهم يأكلون بنهم .. زادت حدة توتره وتلاحقت نبضات قلبه وهو يراقب نظراتهم له بطرف عين، في نفس الوقت أحس أنه على وشك الانفجار في البكاء يأسا بعد تجاهل أحد الجرسونات لإشارته .. هل انتبه الثلاثة الجالسون معه لهذا التجاهل ؟ .. تقريبا نعم ولكن الأسوء أنهم بدأوا في التحدث مع بعضهم فعرف أنهم أصدقاء بعد أن كان يظن أن كل واحد منهم لوحده، وأن أهم ما يجمع بينهم هو التحديق في وجهه .. أيقن أنه ليس غريبا عن المطعم فقط بل حتى عن الطاولة الوحيدة التي سمح له بالجلوس عليها لذا لم يفرح بدرجة كبيرة حين أتى إليه الجرسون أخيرا .. بصوت مبحوح وخافت طلب منه ربع فرخة وطبق أرز وطبق خضار وشوربة وسلطة وعصير .. توقفت يداه عن الارتعاش وهدأت دقات قلبه ليس نتيجة شعور بالاطمئنان أو بالراحة بل لأنه وجد نفسه فجأة متكيفا مع المكان وشخوصه وما يحدث له بينهم .. شعر بالاتساق مع هذه الغربة فأصبح مستسلما تماما ودون جزع لقسوة إحساسه بالشفقة تجاه نفسه ومتعايشا مع آلام وجوده بمفرده في تلك اللحظة .. وضع الجرسون الطعام أمامه فبدأ يأكل في الوقت الذي أوشك فيه الثلاثة الذين يشاركونه الطاولة على الانتهاء، الذين لم يتوقفوا عن تبادل حديث متقطع تتخلله نظرات تراقب بين حين وآخر هذا الجالس معهم ولا يعرفونه، والذي يؤكد - من عمره الصغير نسبيا ومن ملامح وجهه ومن الملابس التي يرتديها التي تدل على أنه (ابن ناس) - أنه لا ينبغي أن يكون موجودا خارج البيت وحده الآن .. كان الطعام جميلا لذا انشغل بالأكل ولم يلتفت إلى أحد سواء من يجلسون معه أو الموجودين داخل المطعم .. نهض وتوجه إلى الحمام

وغسل يديه وذهب إلى الجرسون ودفع الحساب تاركا لـه جنيهين بقشيش .. ترك شارع العباسي وتوجه إلى شارع البحر مقررا الـذهاب للجلـوس في (الهابي لاند) .. أثناء مشيه شعر من جديـد أنـه بطـل .. أنـه نجح في امتحـان صعب كان الغرض منه اختبار قوته النفسية .. لكـن الحالـة البطوليـة الـتي نتجت عن هذا النجاح واستحوذت عليه كانت مختلفة .. لم يحس أنـه البطـل السينمائي الحزين والمتجهم الذي يخوض المغامرات ويقهـر الأعـداء بـصحبة موسيقى تصويرية ملائمة بل أحس أنه خفيف ومتحرر كطفل .. أنه لـيس في صراع ضد أحد أو شيء .. كان يكفيه أنه لا يوجد من يمنعه عن فعل ما يريد في هذه اللحظة، وليس مطالبا بالالتزام أو بالتورط في مواجهة ما للدفاع عـن حق يخصه .. تحولت صفعة أبيه إلى ذكرى شاحبة قُدر لها أن تـومض في ذهنـه بخفوت وعلى فترات متباعدة .. هل يمكن تصديق أن ثمة شعور عابر بالامتنان مر في روحه لهذا الحدث .. ليس للصفعة تحديدا وإنما للحظات الرائعـة الـتي أفرزها الموقف والتي عاشها مع نفسه متخلصا من أي قيود أو أعباء .. لحظـات من أجله وحده فقط لم يذعن فيها لسلطة الأسـرة بـل ودهـس بحذائـه علـى قوانينها وأحكامها .. كانت (المنصورة) جميلـة جـدا في ذلـك الوقـت الـذي يعقب الإفطار مباشرة حيث لا زحام ولا أصـوات مزعجـة .. بـدا لـه شـارع البحر وهو خال تقريبا باتساعه المضاء بأعملة الكهرباء ومصابيح النيون كأنه ساحة كرنفال هادئة مخصصة لاحتفاله الخاص .. دخل (الهابي لاند) وتوجـه إلى المقهى .. شاهد الفوازير وألف ليلة وليلة وشرب عصيرا ثم دفع الحساب وخرج ذاهبا إلى أقرب صديق له في تلك المرحلة والـذي كـان يـسكن قريبـا جدا من منزله .. حينما خرجا للتمشية أخبره صـديقه بـأن أمـه اتـصلت بـه

لمعرفة إذا كان قد جله عنده أم لا وأن صوتها كان متوترا وحزينا .. بعد وقت قصير قرر العودة إلى المنزل وهو يعتبر نفسه منتصرا، لكن كان هناك سبب أقوى بالنسبة له من كافة الأسباب البديهية الأخرى التي تجبره على الرجوع إلى البيت .. لم يكن يريد أن يؤلم قلب أمه أكثر من هذا .. لم يكن يريد أن تظل قلقة عليه لمدة أطول .. هذا الولد يحب أمه جدا ويخاف عليها أكثر من أي شيء في الحياة لذا حينما عاد لم يرد على أحد غيرها .. (خلاص .. خلاص .. سيبيني لوحدي دلوقت) .. هي لم تجد ما تقوله بعدما رأته أمامها واطمأنت عليه سوى (معلش) ثم غادرت الحجرة لكنني أصريت على الدخول إليه .. كان لابد أن أعتذر له .. ماذا كنتم تظنون ؟ .. هل خطر في بال أحدكم ولو للحظة واحدة أنني لست طيبا وأبيض القلب بما يكفي للاعتذار لابني الصغير على صفعة لا يستحقها خاصة أنها حدثت في وقت لا يتناسب أبدا مع إهانة جارحة كهذه ؟ .. (لو سمحت .. من فضلك .. أنا مش عايز أتكلم أو اسمع حاجة من حد) .. ابن الكلب الوسخ يرفض اعتذاري ويقول لي أنا هذا الكلام ؟ .. أنا الذي أعطيته قيمة وحرصت على مصلحته وتطييب خاطره يعاملني هكذا ؟ .. ملعون أبوه ابن كلب ويروح في ستين مصيبة .. أنا بالفعل المخطيء لأنني اعتبرته بني آدم في حين أنه مجرد خول ويستحق حرق الدم الذي أخرسه وأعجزه عن النطق حينما سأل أمه فيما بعد عن الشيء الذي كنت أسأله عنه قبل أن أصفعه فأجابته بأنني كنت أريد المقص .

ليس هذا فقط ما أعرفه عن ابني .. أعرف أيضا أنه يرغب بشدة في مضاجعة أربع كاتبات عربيات : شاعرة عراقية وأخرى لبنانية وقاصة جزائرية وأخرى

مغربية .. بمناسبة الكتابة والذكريات الجميلة التي يحتفظ بها ابني تجاهي والتي لا يمكن أن ينساها أبدا؛ هناك اليوم الذي استلم فيه خطابا من نادي القصة .. كان في المرحلة الإعدادية أيضا وكان قد قرر الاشتراك بإحدى قصصه في المسابقة السنوية للنادي .. أرسل إليهم قصته ولكن يبدو أنه نسى أن يرفق بها الخمسة جنيهات رسم الاشتراك في المسابقة فأرسلت إليه إدارة النادي خطابا يحمل كافة الشروط مع علامة على شرط الخمسة جنيهات .. كان الولد فرحا جدا بهذا الخطاب وكان مصدر سعادته يكمن تحديدا في الكلمة المكتوبة عليه من الخارج : (السيد القاص / ....) .. كانت أول مرة يخاطبه شخص أو جهة ما بهذه الصفة فما بالكم أن نادي القصة نفسه هو الذي خاطبه بها وهو لم يأخذ الشهادة الاعدادية بعد .. لم يفكر هل قرأ أحد في نادي القصة فعلا قصته التي أرسلها أم لا، ولكن كان ما استحوذ عليه كليا هو ذلك الشعور الرائع بالزهو وبالمتعة العظيمة لتقدير الذات التي جلبتها له هذه الحروف المكتوبة على الخطاب .. كانت تعني بالنسبة له إعترافا بموهبته منحها له الكيان الذي يمثل القصة القصيرة في مصر والذي يضم كافة القصاصين الكبار والمعروفين، وأيضا الذي شكّل تاريخه رموز ورواد فن القصة العظام .. أنا مزقت هذا الخطاب أمام عينيه .. ناديته وقلت له : (روح هات الجواب ده وتعال) .. أحضره لي بيدين مرتجفتين ونظرة خائفة فأخذته منه ومزقته على الفور .. لم ألق بالقصاصات في وجهه فأنا لست بهذا الغباء وانعدام الرحمة .. تركت القصاصات على السرير ثم انتظرت حتى غادر الحجرة بعد ما سمع مني العبارة التي وفرها العالم لكل أب مثلي كي يبرر بها أي حماقة قاسية يرتكبها في حق ابنه : (انتبه لمذاكرتك وبس) .. جملة واحدة

أعطيت لكافة الآباء من نوعيتي كهدية كونية صالحة للاستخدام في كل مكان وزمان مع الأخذ في الاعتبار أن قوة تأثيرها تظل مرهونة بالإبداع الشخصي الذي يختلف من أب لآخر : غلاظة الصوت .. نبرته الآمرة والتهديدية ذات العمق المهيب .. تشكيل الملامح لتتخذ مظهرا إرهابيا جامدا .. تحديق العينين وتثبيتهما على اتساع شرس لنظرة حاسمة تقتل في الابن أي فكرة للاعتراض أو حتى لإعلان الضيق قبل أن تولد .. يمكن بالطبع الاستعانة بمهارات التحذير الإضافية لأصابع اليدين، ولكن في موقف كهذا يجب كما سبق وأشرت بناءً على خبرتي الكبيرة في هذا المجال ألا يبالغ الأب في الأداء ويلقي بالقصاصات في وجه ابنه كما يحدث في الأفلام العربية .. أعرف أن تصرفاً كهذا سيجعله يكرهني جدا لذا انتظرت حتى اختفى من أمامي بأمر مني ثم توجهت نحو البلكونة ورميت القصاصات في الشارع .. أظن أنه كان من المنطقي أن يسمع الولد صوت فتح الشيش، وأن يذهب إلى شباك حجرة الصالون المجاور لبلكونة حجرتي ليشاهدني وأنا أرميها .. كان من المنطقي أن يراقب القصاصات وهي تتناثر في الهواء وتتساقط بتتابع ساحر بين أقدام العابرين .

لن تصدقوا أبدا ما الذي أعرفه عن هذا الولد .. هل تتصورون أن من أحد مشاريعه القادمة الكتابة عن جيصي .. لو سأله أحدكم عنه سيخبره بأنه يتميز بثلاث صفات عجيبة لم يشهدها في أي جيص آخر : الطول ـ العمق ـ القوة .. سيقول أن جيص أبيه ينطلق كدفقة واحدة غير متقطعة وتأخذ وقتا للدرجة التي تشعرك أن امتدادها بلا نهاية وأنها لن تتوقف أبدا .. جيص لا

يأتي من نقطة قريبة أو من مركز سطحي بل من قاع بعيد لحفرة بركانية ممتلئة به عن آخرها، ومستسلمة لتصاعد مكوناته المتفاعلة ببعضها نحو الخروج من الفوهة كحمم ثائرة ومتماسكة بتلاحم عتيد .. أن هذا الجيص قوي للدرجة التي تجبرك على اليقين بأنه يزيح الهواء من حوله ويصفع الكائنات والأشياء المحيطة به، ويترك مجالا واسعا من الرنين يظل صداه يتردد بعد انتهاءه في الفراغ المكتوم بفعل الثقل الهائل للصوت الذي صدم كل حيز منه وظل جاثما عليه لفترة .. على فكرة هذه الحالة الأخيرة الخاصة بقوة الجيص قد تبلغ شدتها أحيانا لمدى لا يمكن تصديقه؛ فيحدث مثلا أن تغادر الحجرة التي أطلق فيها الجيص ثم تعود إليها بعد وقت طويل فتسمع رنينه لا يزال يتردد، وتشعر كأن الفراغ لا يزال مكتوما تحت ثقل الصوت الذي جعلت صدمته الأشياء تغيب في إغماءة مؤقتة .. لو تلاحظون فهو لن يذكر شيئا عن الرائحة وذلك لأنه يعتبرها ببساطة شأنا غير مهم .. لجيصي رائحة كريهة ؟ .. ممكن .. لكنه سيخبرك أنه شم ما هو أفظع منها من أشخاص آخرين وربما منه هو نفسه ولكنها لم تصدر أبدا عن جيص كالذي أطلقه والذي لم يسمع مثله أبدا .. هذا هو التميز الحقيقي المرتبط بالشخصية نفسها وتحديدا بهيبتها المخيفة وقوة سيطرتها ومدى قدرتها على إخضاع كافة الموجودات لإرادتها .. سيخبرك أن جيص أبيه لم يكن مجرد جيص بل خطاب شمولي لسلطة مستبدة تعرف تماما كيف ترسخ في وعي المحكومين بأمرها أنها لن تفقد أبدا براعتها في القهر وأنها ستظل حية للأبد .

منذ فترة بسيطة كنت ـ كعادتي ـ أتصنت على حديثه مع صاحبه من وراء

باب حجرة الصالون المغلق .. كان يقرأ له بشغف وإعجاب شديد إحدى قصائد (أونجاريتي) :

(كل لحظة
عشتها من عمري
عشتها من قبل
في عهد سحيق
خارج ذاتي
بعيدان
أنا وذاكرتي
نقتفي أثر الحيوات الضائعة
أستيقظ
مغتسلا
بأشيائي الحميمة
مندهشا
ووديعا
بعيوني المتنبهة
أطارد الغيوم
التي تذوب بعذوبة
وأتحسر علي صديق مات
ولكن الله...... من هو..؟

والكائن

الخائف

يفتح عينيه

ويرحب

بقطرات النجوم

والبراح الصامت

ويشعر بأنه

يخرج من غفوته

مرة أخري)

كنت مستفزا جدا لأن استراقي للسمع لم تكن حصيلته سوى نقاش عن قصيدة .. لا أسرار مختبئة تكشف لي عما لا أعرفه عن هذا الولد .. أرجو ألا تتسرعوا في الحكم عليّ باعتبار أن التصنت عادة سيئة .. صدقوني حينما يقوم الأب بذلك تجاه ابنه فإنه يعتبر عملا ضروريا وهاما جدا .. سأعطيكم مثالا : وهو طفل في المرحلة الابتدائية لاحظت أنه كان ينتهز أحيانا أي فرصة كي يغلق باب حجرة النوم عليه ولا يصدر أي صوت من وراء بابها .. تكرر الأمر كثيرا مما جعلني أقرر مفاجأته لمعرفة ماذا يفعل خاصة أنه لم يتعوّد أبدا أن يذاكر أو يلعب أو يفعل أي شيء آخر داخل حجرة مغلقة .. فتحت الباب عليه وما أبشع ما رأيته .. كان الكلب واقفا أمام المرآة فاتحا الأزرار العلوية لبيجامته الكستور بما يمكنه من أن يزيحها قليلا من على كتفه كي يقبله .. (بتعمل إيه يا خول ؟) .. كنت بوقوفي عند باب الغرفة قد حرمته من أي

فرصة للهرب فأصيب بالهلع وهو يسرع برفع البيجاما إلى كتفه العاري .. (مفيش والله) .. كان على وشك البكاء بينما ظل يتراجع برعب شديد باتجاه إحدى زوايا الحجرة وأنا أواصل تقدمي نحوه حتى أصبح محاصرا في ركن مناسب تماما للصفعة التي هويت بها على وجهه .. جاءت أمه مسرعة لتجده يصرخ بحرقة ممسكا بوجهه المشتعل .. حكيت لها ما رأيته وهي تأخذه في حضنها فأصبح بكاءه مكتوما مع استمرار جسده الصغير في التشنج بقوة .. (إسأليه كان بيبوس كتفه في المراية ليه ؟!) .. أخرج رأسه من حضنها فرأيت ملامحه الغارقة بالدموع ترتعش وأنفاسه تتقطع وهو يصرخ : (كنت بأقلد الإعلان إللي في التليفزيون) .. فهمنا أنه كان يعيد حركات البنت الجميلة بطلة الإعلان الذي يذيعه التليفزيون كثيرا عن أحد كريمات البشرة .. (فيه راجل يعمل كده ؟) .. قلتها له بصوت واطيء نسبيا بينما ظلت عينيَّ محتفظتين بنفس الشراسة التي تؤكد على تأهبي لمواصلة افتراسه .. (رُد ...) .. صحت فيه كعاصفة على وشك اقتلاعه من مكانه .. (لأ ...) .. أسرع بقولها وهو لا يزال يبكي ويرتجف .. (قول معنتش هاعمل كده تاني) .. (معنـ ... تش .. هاعـ ... مل كده تـ ... اني) .. أنزلت رأسي ليقارب وجهه .. (بوس ...) .. ظل كما هو .. (بقولك بوس ...) .. مد شفتيه الصغيرتين وقبلني قبلة خفيفة وخاطفة جدا ثم عاد إلى حضن أمه ليواصل البكاء بينما أصابعي الغليظة لايزال احمرارها متوهجا على بياض خده .. غادرت الحجرة وأنا أقول بيني وبين نفسي أنني بالتأكيد كنت على حق في ضربه لأن ما فعله لم يكن من الممكن أبدا السكوت عليه وتجاهله وأن الأمر كان سيتفاقم حتما ويزداد خطورة ووساخة لو لم أعالجه منذ البداية بمثل هذه الشدة وهذا الحسم .. قلت

في داخلي بأنه حينما يكبر سيعرف قيمة هذه الصفعة التي أنقذته من مصيبة يفوق شرها الوجع اللحظي الذي شعر به الآن .. صحيح أنه طفل لكن كان يجب أن أتصرف هكذا .. ثم أنه من الممكن أن ينسى .. الأطفال يتجاوزون القسوة ويواصلون حياتهم كأن شيئا لم يكن .. أيضا أنا لم أتركه إلا بعد أن جعلته يقبلني وهذا أكبر دليل على أنه سيتجاوز ما حدث وسينسى .. بالطبع كان يجب أن يقبلني هو وليس أنا الذي كان يجب أن أقبله .. هو الذي أخطأ وبالتالي هو الذي كان يجب أن يعتذر .. صفعتي لم تكن مؤلمة إلى هذه الدرجة .. فعلا .. لو كانت كذلك ما تمكن من تقبيلي .. هو سامحني .. بالتأكيد سامحني ولا يزال يحبني، وقبلته هذه ستساعدني بالضرورة على مسامحة نفسي .. أنا، عامة لم أكرر ما فعلته به أبدا .. صدقوني لم يكن مجرد كلام، والدليل على هذا أنه بعد مرور سنوات كثيرة على ذلك الموقف وحينما أصبح طالبا في الجامعة دخلت عليه حجرته ذات مرة فوجدته يلصق شفتيه بالمرآة ويقبل نفسه .. ابتسمت خارجا من الحجرة وأنا أقول بداخلي أنه بالتأكيد يقلد إعلانا .

تذكرت بينما أتصنت عليه هو وصديقه من وراء باب حجرة الصالون أنني بلا أصدقاء .. عندي شخص واحد أقول أنه صديقي في حين إنني أفرض صداقتي عليه في حقيقة الأمر .. ابني العاطل لديه أصدقاء كثيرين، وكان هذا سببا وجيها للانتقام منه .. أقصد معاقبته .. تهذيبه وإصلاحه بمعنى أصح .. عموما لم أكن أحتاج لبذل جهد كبير .. كان يكفي حينما أراه سائرا في الشارع مع أصدقائه أو واقفا معهم تحت البلكونة أو يجلس بصحبتهم في حجرة الصالون أو يكلّم أحدهم في التليفون ؛ كان يكفي أن أقول له بعد

ذلك كلمة واحدة : (إنت دلدول) .. خمسة حروف سحرية كافية لإحراقه تماما وإبقائه مشتعلا مهما حاول إطفاء نفسه .. ربنا عرفوه بالعقل : كيف يمكن لشخص أن يكون لديه كل هذا الكم من الأصدقاء ويأخذون أغلب وقته هكذا دون أن تضيع شخصيته بينهم ؟ .. دون أن يأتمر بأمرهم ويسير على هواهم ؟ .. أولا هو واحد وهم كثرة، ثانيا كلما نادى عليه أحد من تحت ينزل ليقف معه .. كلما اتصل به أحد يرد عليه .. كلما جاءه أحد يستقبله .. لا يقول (لا) أبدا فكيف لا يكون (دلدولا) ؟ .. كان لقب (ذيل) كبيرا عليه لذا فهو لم يستحق سوى هذه الصفة التصغيرية، مع العلم أنني أتحدث فقط عن الشكل الخارجي لعلاقته بأصدقائه ومدى خضوعه لهم والله أعلم بالتأكيد في أي شيء يطيعهم أكثر من ذلك .. متعة كبيرة أن ترى وجهه بعد أن يسمعها مني : (انت دلدول) .. إحساس رائع باللذة وأنت تتأمله وهو يكتم غيظه بصعوبة مانعا نفسه من القيام برد فعل يعيد رتق كرامته التي مزقتها وبعثرتها بسهولة كلمة واحدة .. متعة كبيرة وإحساس رائع باللذة لك أو لأي أحد آخر وليس بالنسبة لي .. لا شيء يمكنه أن ينقذني .. لا يوجد في العالم ما يمكنه معالجة أن يتهرب منك صديق ويرسل لك وأنت واقف على بابه من يكذب عليك ويخبرك بأنه غير موجود في حين أنك كنت تسمع صوته بوضوح تام قبل أن ترن الجرس .. لا شيء يقدر على تخفيف مرارة أن تظل تذهب كل يوم إلى صديقك الذي يتهرب منك حتى يرضى أن يقابلك في النهاية فتبتسم في وجهه بسعادة وامتنان، وتستفسر بود كبير عن أحواله دون أن ترغب حتى في سؤاله عن السبب الذي يجعله ينكر وجوده كلما جئت إليه حتى لا يتضايق أو يغضب منك .. متعة كبيرة وإحساس رائع

باللذة لك أو لأي أحد آخر وليس بالنسبة لي .. مهانة ابني العاطل لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تفرحني .

بمناسبة الأصدقاء بدأ هذا الولد يحس مؤخرا بأن هناك من أصدقائه من يتحاشى تقبيله أو على الأقل من لا يلصق خده به بل يلمسه لمسة بسيطة وخاطفة أثناء التقبيل .. لم يكن من الصعوبة بالطبع أن يفهم بأن السبب هو البثور التي لم تكف عن الظهور والاختفاء في وجهه منذ أن كان في المرحلة الثانوية .. كان الأمر مؤلما جدا بالنسبة له خاصة أنه أثناء التفكير وضع نفسه مكان كل واحد منهم فوجد أن تصرفه كان سيكون مختلفا، بل وتذكر أن لديه أصدقاء بالفعل لديهم نفس المشكلة ومع ذلك كان يقبلهم بشكل عادي .. كيف يمكن لأحد أن تطاوعه نفسه على أن يتعامل مع صديقه على أنه موبوء، ويشعره أن به علة أو عيب يستحق بسببه أن يحذر الآخرون منه في حين أن المسألة كلها ليست إلا (حب شباب) ؟! .. هل تعرفون ماذا فعل ؟ .. قرر أن يستمتع .. كان يقبّل أصدقائه رغما عنهم، ويلصق خده بقوة بخدودهم دون أن يجرؤ أحدهم على أن يعترض صراحة أو يظهر ضيقه .. بدا وكأنهم كانوا قادرين فقط على تحاشي قبلاته وليس على مواجهته برفضهم لها وكان في هذا قدر من الطيبة أرضاه قليلا التأكد من كونه لا يزال موجودا لديهم .. رغم ذلك لم تكن هذه الطيبة كافية كي يتجاوز المأساة التي كان تحققها مستحيلا بالنسبة له .. ألا يراعي أصدقائه مشاعره حينما يقبلونه بهذه الطريقة التي لا تعني سوى أنهم ينفرون منه بشكل أو بآخر .. أجبرهم أيضا بذلك على أن يضيف كل منهم ابتسامة للموقف إمعانا في إخفاء حقيقة إحساسه واستيائه من هذه القبلات الملغومة مما أكسب الأمر روحا كوميدية

جعلته يستمتع أكثر .. كان يشفي غليله .. ليس من أصدقائه ومن طريقتهم الجارحة في تقبيله بل من المجهول المختبيء الذي سمح بهذا .. الذي جهّز عالما لا يمنع تمرير الإهانة بواسطة قبلة .. كان يحاول محاسبة السبب الغامض الذي وفر ببشاعة كل ما يلزم من أجل يرتكب أصدقائه هذه الجريمة في حقه .. كان يريد أيضا أن ينكر ما حدث .. حاول أن يثبت لنفسه أن كل هذا ما هو إلا مجرد وهم يخصه وحده وأن الحقيقة عكس ذلك تماما .. أصدقاءه لا يتحاشون قبلاته ولا يلمس كل منهم خده لمسة بسيطة وخاطفة ولا أي شيء من هذه التخيلات بل يقبلونه بشكل عادي جدا مثلما يقبّل الرجال بعضهم .. كان بإصراره على إجبار أصدقائه على التقبيل وإلصاق خده بقوة بخدودهم يسعى لرفض هذا الواقع، والتأكيد على أن الأمر عادي جدا، وأن أصدقائه ليس من الوارد أبدا أن يفكروا في تجنب قبلاته .. قرر أن يستمتع أكثر .. أصبح أحيانا يدير رأسه بعيدا كأنه غير منتبه حينما يرى أحد أصدقائه يمد رأسه إليه بحكم العادة كي يقبله أثناء المصافحة فيتراجع هذا الصديق محاولا إخفاء إحراجه .. أحيانا أيضا كان يتعلل بأن عنده زكام ويخشى على صاحبه من انتقال العدوى ويضحك في داخله وهو يراقب انسحاب رأس صديقه للخلف عائدة إلى مكانها .

احتمال مستبعد

* * *

كالعادة .. شعرت أمي بالدوخة تزيد في رأسها وبأنفاسها تتثاقل وبدقات

قلبها تتلاحق .. شعرت أن اللثة شاحبة وعابرة للغاية كأنها لم تحدث من الأساس وهي تخرج أصابعها المبتلة قليلا من تحت كلوتها .. مدت يدها نحو الساعة التي تحمل وجه (وودي آلن) كي تضبطها وتجعلها تحسب كل ٦٨ دقيقة تمر .. ظلت مستلقية وهي تشعر بالإنهاك الشديد حتى بدأت تروح في النوم .. لم تعرف كم مضى من الوقت قبل أن يجبرها شيء خفي على فتح عينيها فجأة لتجد (وودي آلن) يخرج من ساعة الحائط ويقف أمامها .. لم تفزع بل على العكس وجدت نفسها تبتسم له بارتياح غريب ثم تتابعه بفرح وهو يجسد شخصية (توم كاسترو) التي عرّفه بها (بورخيس) في (التاريخ الكوني للخزي) : دجال أبله متسم بالمرح والغباء والخضوع انتحل بواسطة صديقه الزنجي العبقري (بوجل) شخصية (تيكبورن) الضابط في الحربية ذو التربية الفرنسية والابن الأول لعائلة من كبرى العائلات الكاثوليكية الإنجليزية والذي غرقت السفينة التي كانت تحمله في المحيط الأطلسي وترفض والدته الليدي تصديق موته .. ظل (وودي آلن) بنظارته التي تنكمش وراءها عيناه المذعورتين بمكر وبالاضطراب المغوي لكلماته المتعثرة وبحركات يديه المرتبكة كقاطع طريق محترف؛ ظل غائبا تماما في روح (توم كاسترو) بعد خروجه من السجن الذي قضى فيه سنوات عقوبة الانتحال وهو يتجول داخل قرى ومدن المملكة المتحدة كي يحكي حكايته التي يعلن فيها براءته أحيانا ويعترف بذنبه أحيانا أخرى حتى أنه في ليال كثيرة كان يبدأ بالدفاع عن نفسه ثم ينتهي إلى الاعتراف بكل شيء وفقا لرغبة الجمهور الذي لم يكن (توم كاسترو) يحرص سوى على إبهاجه وإسعاده دائما .. إبهاج وإسعاد الجمهور فحسب دون شيء آخر حتى مات .. ظلت أمي

تردد في داخلها بألم وهي تضحك بشكل متواصل : (إبهاج وإسعاد الجمهور فحسب حتى مات) إلى أن استيقظت وهي لا تزال تضحك لتجد (وودي آلن) قد غاد إلى ساعة الحائط ويقول لها :

(I need the *eggs*)

* * *

كانت أمي تفعل مثلك .. تخلع سوتيانها أمامي وتحك ثدييها المترهلين وبطنها المتهدل طويلا .. الفرق أنها لم تكن تأتي إلى سريري كي أنام معها لمجرد أننا تعوّدنا على ذلك .. كانت تذهب لسرير رجل آخر تعوّدت على النوم معه .. هل كان ينتاب الرجل قدر من القلق من تأخر موعد دورتها الشهرية أيضا ؟

* * *

رغم أنني مشيت كثيرا بعد أن تركته وحده في الشارع المزدحم، ورغم أنه كان خائفا إلا أنني لا أعرف لماذا كنت واثقا هكذا بينما أفتح باب الشقة أن أبي لم يرجع بعد .. فعلا لم يرجع .. لا أحد بالمنزل إلا أمي التي تجلس في البلكونة كعادتها في هذا الوقت الفاصل بين العصر والمغرب .. كعادتها ربما منذ أن تزوجت بأبي أو ربما منذ أن بدأت في الإنجاب أو ربما منذ أن سوّت معاشها ولم تعد تذهب إلى مدرسة (ميت حدر الابتدائية) لتدرّس اللغة العربية .. نظرت إليّ للحظات ثم أدارت رأسها لتعاود التطلع إلى الشارع دون أن تتكلم .. لن أخبرها بأي شيء : ما فعله أبي على الإنترنت وما أخبر الناس به عنا وما حدث بيني وبينه في الجامع .. ستزداد آلام ذهولها وحشية ومرارة دون فائدة .. أمي التي قضت حياتها مسجونة بيننا .. ربما كان أبعد مكان ذهبت إليه كي (تغير جو) كان (رأس البر) ولمرات قليلة جدا خلال

سنوات عمرها التي وصلت إلى ٦٨ .. هي لم تغير حياتها أبدا .. ربما كانت تفكر في ذلك الآن وهي تنظر إلى الناس والبيوت .. أمي لم تكن ترى ناساً ولا بيوتاً .. أمي لم تكن تشاهد سوى تروس (**Times Modern**) العملاقة والسعيلة بنفسها ونسخ لا حصر لها من (شارلي شابلن) تدور بينها دون توقف .. كانت تشاهد نفسها بوضوح حاد كإحدى هذه النسخ .. في ماذا كانت تفكر أمي أيضا ؟ .. هل كانت تتذكر مثلا يوم زفاف صديقة ابنتها ؟ .. أعرف إلى أي مدى كان هذا اليوم قاسيا عليكِ خاصة أن ابنتك وصديقتها كانتا في عمر واحد وكانت كل منهما للأخرى أكثر من الأخت، والاثنتان ـ ياللعجب ـ تأخرتا في الزواج لكنك عرفتِ أن صديقة ابنتك ستتزوج أخيرا .. كتمت دموعك ومشاعرك على قدر ما استطعتِ حتى جاء يوم الزفاف وكانت ابنتك منذ الصباح هناك في بيت صديقتها بالشارع المجاور .. كانت تكوي فستان الفرح بنفسها حين انقطعت الكهرباء فقررت أن تأخذ الفستان إلى بيتها لتكويه هناك حتى لا يضيع الوقت .. أنتِ التي فتحتِ لها الباب يا أمي .. أنت التي رأيتيها تقف حاملة فستان الفرح وتعبر أمامك وتفرده على المنضدة بحرص .. لم تكن ترتديه ولم يكن هذا الفستان يخصها بل كانت تهيئه لجسد واحدة أخرى وبالتأكيد لم يكن انقطاع الكهرباء صدفة وحتما كان الوقت يضيع .. يضيع منك أنتِ ومن ابنتك ولن يضيع من الصديقة التي ستفرح الليلة وهي جالسة بجوار عريسها مرتدية فستان مكوي جيدا .. بكيتِ كثيرا .. نفذت منكِ كل قدرة على كتمان الدموع أمام ابنتك التي حاولت أن تبتسم وتضحك وتداعبك كي تهدئك وتخفف عنك لكن الدموع خانتها هي أيضا .. دموع صامتة كدمه شفافة سالت ببطء ثقيل

على خديها كانت حريصة على تجفيفها تماما قبل العودة إلى بيت صديقتها .. تركتكِ هنا .. في البلكونة حيث تجلسين الآن وتنظرين إلى الناس والبيوت دون أن تشاهدي ناسٌ ولا بيوتٌ .. نهايتنا ليست سعيدة يا أمي .. من منا يجروء على أن يطلب منك التمسك بأي أمل أو حتى يتحدث معك عنه من تحت لتحت ؟ .. من منا يجرؤ أن يطلب منك أن تبتسمي الآن ؟ .

* * *

أمامك بالضبط منضدة زجاجية؛ فوقها علبة سجائر وولاعة ومطفأة صغيرة .. فوق الحائط نسله (رمبرانت) الحزينات معلقات في صمت .. بعد أن تأخذ وقتك في رصد الإضاءة الخافتة للأباجورات الموزعة في الأركان والإستماع إلى (فرانك سيناترا) : (let me stay in your eyes) يمكنك أن تلمح مكتبا خشبيا في زاوية الصالة يجلس عليه (يانيس ريتسوس) و(رينيه ماجريت) .. أيضا توجد مكتبة تكشف أضلافها الشفافة عن (تشيكوف) و(بورشرت) .. لا تخرج إلى الشرفة فهي عالية ولن تمنحك تطلعا جيدا لشئ له أهمية كما أن النباتات التي بها آخذة في الذبول تقريبا .. توجد ردهة قصيرة تمر خلالها بحمام صغير ومطبخ وتنتهي بغرفة مظلمة إلا من ضوء التليفزيون الذي يعرض الآن مسرحية كوميدية .. هناك نافذة تطل على سطح مجاور تموء فوقه قطتان هزيلتان .. أيضا يوجد دولاب كبير له مرايا وصور فوتوغرافية لـ (شارلي شابلن) و(لوريل وهاردي) و(اسماعيل ياسين) و(بطوط) .. فوق الفراش يتمدد شخصان مصممان على عدم رفع الملاءة البيضاء إلى وجهيهما ولن يتركانك تفعل ذلك أبدا .. رغم أن عيونهما مغمضة ولا يتنفسان .

* * *

(ليس من الضروري أن تخرج من بيتك .. لازم طاولتك واصغ .. بل دع الاصغه واكتف بالانتظار .. بل دع الانتظار واكتف بالعزلة؛ فالعالم سيحضَر واهبا نفسه إليك كي ترفع عنه أقنعته ومنتشيا أمامك) .

كافكا

* * *

يراه عازف الترومبيت طوال الوقت وهو يحمل أجسادا حية ويجري مندفعا .. يمرق بسرعة من حلقات النار .. يراه وهو لا يحترق أبدا .

* * *

طوال الـ ٣٥ سنة التي عشتها بينهما لم أره يداعبها سوى دعابة واحدة فقط لا تتغير .. يأتي إليها عندما يلمحها جالسة في صمت وحزن ثم يقرّب وجهه من وجهها بابتسامة خفيفة ومضغوطة للداخل ويسألها : (هي إيه ؟ .. ساعة تروح وساعة تيجي ؟)

كان دائما يحرّك أصابع يديه كأنه يمسك بالصاجات التي كان يمسكها (حسن أتلة) أو (خالتك شفيقة) في فيلم (اسماعيل ياسين في مستشفى المجانين) .. أمي لم تكن عندها (شعرة) لأنها كانت حزينة دائما .. كان يسهل على أي

أحد سواء كان قريبا أو بعيدا عنها أن يكون متأكدا جدا من ذلك خاصة حينما يراها تبتسم أو تضحك .. هل كان أبي هو الآخر متأكدا من هذه الحقيقة ومع ذلك كان يسألها هذا السؤال كي يحاول تخفيف الهم عنها ؟ .. هل كان يريد أن يخفف الهم عن نفسه بأن يمحو أي ملامح تعيسة تشاركه المكان الذي يوجد فيه، خاصة ملامح أمي التي تختزن تاريخهما معا ؟ .. أمي لم تضحك أو حتى تبتسم أبدا على دعابته التي كان من الواضح أنه لا يعرف غيرها ربما بسبب إعجابه الهائل بهذه الشخصية والذي لم يسمح لأي دعابات أخرى أن تستقر في ذاكرته .. كانت تخرج منه ثقيلة وبلهاء خاصة مع جحوظ عينيه المصاحب لها وابتسامته الحذرة التي لا تريد أن تكتمل وغلاظة ملامحه المتجهمة والقلقة .

نظر أبي إليّ بضيق تائه حينما نهضت أمي من مكانها كأن دعابته - كالعادة - لم يكن لها أي وجود وتوجهت إلى المطبخ لعمل الشاي .. أبي الذي عاد إلى المنزل بعد العشاء ليجدني أنا وأمي جالسين في البلكونة ولا نتحدث في شيء .. أمي لم تنهض سوى مرتين لتصلي المغرب والعشاء ثم عادت لتجلس وتنظر إلى الشارع كأنني لا أجلس أمامها .. ذهب أبي إلى حجرته كإله غاضب من فشله في أن يكون بشرا وغاضب أكثر من نفسه لأنه نزل من العرش ليحاول الهزار مع شخص عادي .. عادت أمي بصينية الشاي ووضعتها على المنضدة في الصالة .. خرج أبي من حجرته بالبيجاما ووجهه يوحي بالرغبة في افتراس أي أحد .. لاحظت أنه لم يقترب من الكومبيوتر وأنه لم ينظر إليه أبدا حتى وأنا أذهب حاملا كوبي لأجلس عليه وأفتحه .. أخذ أبي كوبه ودخل إلى حجرته بينما عادت أمي إلى البلكونة .. تجولت في

مواقع كثيرة ليس من بينها منتدى (أضـواء المنـصورة) لكـنني قـررت إلقـاء نظرة عليه قبل أن أغلق الجهاز .. لازال ما فعله أبي كما هو ولا زالت رسالته كما هي ولم يتدخل أحد حتى الآن ليعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبـل هـذا الصباح .. أغلقت الجهاز في نفس اللحظة التي سمعت فيهـا همهمـات خافتـة تأتي من حجرة أبي .. اقتربت أكثر لأقف وراء الباب المغلق كـي أفهـم مـاذا يقول لنفسه :

(ما انا كنت رحت هناك .. هو ماقاليش حاجة .. طـب انـا هـا أعمـل إيـه .. كنت زمان بامشي في الحتة دي .. هو راح فين .. أصل انا مش عارف .. كانـت معايا هنا .. قلتلها تاخدني زي الأول .. طب ما تخليه ييجي ...) ...

كأنني كنت أتصنت على (بوكوفسكي) وهو يقول :

(علينا جميعاً أن ندرك

بأي سرعة

يمكن أن يختفي كل شيء :

القطة، المرأة ، الوظيفة ،

العجلة الأمامية ،

السرير، الجدار ،

الغرفة ؛ كل حاجيّاتنا

بما فيها الحب ،

القائمة على أسس رملية ،

وأي سبب آخر

أياً يكن غير مترابط :
موت صبي في هونغ كونغ
أو عاصفة ثلجية في أوماها ..
يمكن أن تحلم في خرابك .
كل أدواتك الصينية تتحطّم على أرضية المطبخ ؛
ستدخل صاحبتك
وستكون واقفاً هناك ، مخمورا
وسط ذلك كله وستسأل :
يا إلهي ، ما الذي يجري؟
وستجيب : لا أعرف ، لا أعرف)

شعرت بأنني لابد أن أدخل إليه الآن .. كنت فزعا وغاضبا جدا وعاجز عن تصديق المدى المرعب للسفالة الواقفة وراء خلق الجحيم الذي يسمح بوصول أبي إلى هذا الحال دون أن ينقذه شيء .. كنت أعرف أيضا أنني لن أتحمل أن أراه أو أتكلم معه لذا توجهت إلى أمي سريعا برعشة طفل صغير لا حيلة له وطلبت منها أن تذهب لتطمئن عليه .. نهضت أمي بلهفة خائفة اعتادت عليها ودخلت إلى حجرته بينما ظللت واقفا بالخارج .. أعرف أن أمي تجلس بجواره الآن وأنها ستربت على كتفه كثيرا بينما تحاول أن تفهم ما به .. أعرف أنه سيظل صامتا وسينظر مبتسما بهدوء مخيف إلي شيء لا يمكن لأحد غيره أن يراه .. أعرف أن أقوى أمنياتي في تلك اللحظة أن يعثر أبي بعد الموت على من يضحك ـ ولو من باب المجاملة ـ على دعابته التي لم

تضحك أحدا في الدنيا .

* * *

صاحب البار طرد (هاكر) سكراناً لم يعرف كيف (يهرتل) بطريقة صحيحة .. بعدما كان يضحك خرج متجردا من أوسمته التي أهداها إليه ذات يوم عمّال البار .. أثناء انشغاله بالتبول فوق سحابة؛ سقطت منه سلاحف صغيرة نزل مندهشا ليراقبها .. بعد فترة أدرك أنه بلا مأوى باستثناء أن يتنازل عن رأسه ليصير أصغر حجما فيُسمح له بالإقامة داخل نفق .. لم يكن هذا النفق يؤدي إلى حانات أخرى بل إلى قبور لا أول لها ولا آخر خصصت لدفن السلاحف .

* * *

أهلا ومرحبا بكم

قضيت الأسبوع الذي سبق حفل توقيع كتابي (السيىء في الأمرَ) بمكتبة books & beans في محاولة التوصل إلى الصيغة المناسبة لفكرة التوقيع التي قررتها منذ فترة طويلة .. أردت أن أجعل من هذا التوقيع رسالة تظل باقية مع كل واحد طالما ظل محتفظا بالكتاب .. تذكير موثق بمعنى يخصني تغلبت الرغبة في كتابته بشكل صحيح على مخاوف الارتباك عندي .. كان من المؤكد أن شعورا بالاختناق ينتظرني نتيجة الحصار البشري والمراقبة المتأهبة

لكلماتي وانفعالاتي طوال الحفل بصفتي صاحبه .. لم أنته من كتابة التوقيع إلا قبل الحفل بيوم واحد وما جعلني آخذ كل هذا الوقت ليس الفشل في العثور على الكلمات الملائمة أو التركيبات الجمالية للعبارات وإنما لأن حوارا في رواية (البطء) لـ (ميلان كونديرا) كان يتكرر بثبات في ذهني :

(فانسان : عندما كنا سويا ثم انضم إلينا أحدهم انشطر المكان الذي كنا فيه فجأة إلى قسمين بحيث أصبحت أنا والقادم الجديد في الأسفل بينما ترقص أنت على المسرح .

بونتوفين : قلت لك أنك تخلط المفاهيم .. يطلق مصطلح الراقص حصرا على محبي الظهور في الحياة الشعبية وأنا أمقت تلك الحياة .

فانسان : لقد سلكت البارحة أمام تلك المرأة سلوك (بيرك) أمام الكاميرا .. أردت لفت نظرها إليك كليا، أردت أن تكون الأفضل والأكثر لطفا واستخدمت ضدي أسوأ أنواع (الجيدو) الذي يستخدمه الاستعراضيون .

بونتوفين : ربما كان جيدو الاستعراضيين لكن ليس الجيدو الأخلاقي ! .. لهذا السبب تخطيء عندما تنعتني بالراقص؛ إذ يبذل الراقص أقصى جهده كي يبدو أكثر أخلاقا من الآخرين بينما أردت أن أبدو أكثر شرا منك .

فانسان : يهدف الراقص إلى إظهار نفسه أكثر أخلاقا لأن جمهوره الكبير البسيط الساذج يؤخذ بالحركات الأخلاقية، لكن جمهورنا الصغير منحرف ويحب الحركات اللاأخلاقية. إذا لقد استخدمت ضدي الجيدو اللاأخلاقي وهذا لا يتناقض مطلقا مع جوهر الراقص لديك).

يدرك الكاتب أحيانا بناءً على تجاربه الخاصة وتجارب الآخرين التي عايشها

بشكل واقعي وأيضا من خلال قراءاته للحوارات والرسائل والسير الذاتية لغيره من الكتّاب أن الكتابة هي التحرر الذي يحصل عليه الكاتب نتيجة مروره إلى خراء الوجود عبر خراءه الشخصي .. السيطرة الذهنية على العالم بواسطة اللعب بخرافاته ومحاكمتها .. حيازة النشوة الطفولية التي قامت عليها عبارة (شوبنهاور) : (هذه الحياة محزنة جدا، ولهذا قررت أن أقضيها بالتأمل فيها) .. الفرح الاستثنائي الكامن في تجاوز فرديتك نحو الاشتباك مع الأشباح الكونية التي تتولى حراسة الغموض الأزلي لما وراء الحياة والموت .. هذا التحرر لا يرافق الكاتب في حياته العادية باعتباره سعادة مدخرة يسهل حملها في أي وقت وفي أي مكان ويسهل التذكير بها فورا وقت الألم .. ليست يقينا حاضرا دائما يتدخل بوعوده لإنقاذك من التعاسة أو على الأقل تخفيفها بمجرد أن تبدأ .. الكاتب يعيش حياته العادية كأن هذه النشوة لا وجود لها من الأساس .. كأن الكتابة لا تنتظره .. كأنه لم ولن يفرح أبدا .. رغم أنك تعلم تماما أن بصيرة خفية تشتغل تلقائيا بداخلك طوال الوقت دون أن تفكر فيها أو تشعر بها في النطاق المباشر للحواس والوعي، وتعمل على إعداد لحظة كتابة أو لحظة سعادة قادمة .. لكن ما يؤرقني بالفعل أنني لست راقصا .. لم يعنيني أبدا أن يعتبرني الآخرون شخصا طيبا ومتعاطفا ومحل ثقة .. بالعكس .. إذا كانت هذه صفاتي حقا فهي بالنسبة لي في كثير من الأحيان بمثابة لعنة حكمت عليّ طبيعتي ألا أتمكن من التخلص منها حتى الآن .. هذه الصفات تعني ببساطة أن تكون ملتزما في أغلب الأحوال تجاه الآخرين بفعل ما يريدونه، وأن تظل حريصا على مشاعرهم وأن تصغي بتفهم ومساندة إلى همومهم ومشاكلهم، وأن تكون حاضرا طوال الوقت كي تساعدهم

وتشاركهم بضمير مخلص في إيجاد الحلول والنهايات السعيدة .. أن تعطيهم الاحتواء والدعم وتتركهم ـ وقد يكون هذا أهم شيء ـ يأخذون ثأرهم من العالم منك دون أن تقاوم أو تعترض .. تتركهم يحمّلونك مسؤلية الإبقاء على روحك متوفرة كي يشفوا بواسطتها غليلهم من الدنيا .. تترك نفسك متاحا للإحساس المؤلم بالذنب لو قصّرت أو امتنعت عن الاستسلام لهم وتظل مشغولا بكيفية تعويضهم بأقصى سرعة عن ذلك .

أريد أن أكون بطلا أهيمن على جميع المسارح بتهكماتي وسخرياتي اللاأخلاقية الطائشة في كل الاتجاهات دون تمييز .. أن أسبب المعاناة لمن حولي بإجبارهم على خوض معارك لا يتجاوزون خلالها أدوارهم المقتصرة على الدفاع فحسب عن كرامتهم المهانة بينما أظل أنا المهاجم سريع البديهة الهادئ والواثق والمسيطر ببراعة على كل المواقف .. القادر على إيلام المرتبكين كما يجب دون أن يفلت منه أي شيء .. كنت أتمنى أن يعتبرني الآخرون فاسدا وخبيثا وماكرا وغامضا وحادا .. كنت أتمنى أن يعتبرني الآخرون عكس ما يعتبرونه عني الآن .

هل كنت أفكر أثناء كتابتي للتوقيع في ضرورة استغلاله لخلق حقيقة مغايرة عن نفسي وتثبيتها في وعي الآخرين بأي طريقة ؟ .. حقيقة لا علاقة لها بالكتابة التي ليس من شأنها أن تمنحك المواهب اللازمة للتحول في الحياة إلى راقص ؟ .. هل كنت أطمع في الحصول على تعويض مناسب لفشلي في الرقص بتجاوز إشكالية الرقص ذاته والتعالي عليها باعتبارها قيمة مهملة أو على الأقل منفصلة لست في حاجة لاكتسابها مقابل قيمة (الكتابة) التي

ينبغي معرفة الإنسان من خلالها وحدها حتى لو كان في الأمر معجزة لن تتحقق ؟

لماذا لا أكون معميا ؟ .. لا أرى سوى ما هو مفروض عليّ أن أراه ؟ .. لماذا لا أكون راقصا بارعا في حقيقة الأمر بل وأبرع من كل من لهم صلة بي، ومع ذلك لا أعترف بذلك ربما لمجرد أنني فقط غير راض عن أدائي ؟ .. لماذا لا أقول أن القتل متبادل في جميع الأحوال ؟ .. أن كل منا يخضع لأوهامه ومبالغاته المتقلبة أحيانا عن نفسه وعن الآخرين ويظل أسيرا لتوتراتها المختلفة ؟ .. أن كل منا يضاجع الآخر بطريقته حيث لا يوجد ما يسمى بالطيبة ولا بالخبث أصلا ؟

ذهبت إلى المكتبة .. كان عدد الذين حضروا أقل ببشاعة مما توقعته أو مما تمنيته بمعنى أصح .. (يا ولاد الوسخة) .. أطلقت بداخلي شخرة مجلجلة تليق بالموقف وتمنيت أن تتجول على كل من أعلن حضوره على الفيس بوك ولم يأت حتى تحرقه في مكانه .. تحولت (الحفل) إلى (جلسة) منزوية في أحد الأركان .. شعرت فجأة أنه يجدر بي أن أفرح لأن هناك أشخاص من هذا العالم مهما كانوا قليلين سيعود كل منهم إلى بيته هذه الليلة ومعه نسخة من (السيء في الأمر) وعليها التوقيع .. رسالتي التي اعتبرت ـ ولو من باب العزاء والتطييب الذاتي للخاطر ـ أنه يكفي أن يقرأها أحد مرة واحدة فقط ولا يتذكرها بعد ذلك أبدا :

(كان هنا ...

ويتمنى لو استطاعت الكتابة أن تجعل الآخرين يتخلصون من كافة ما يظنون أنهم يعرفونه أو يفهمونه عنه ...

أن تخبرهم بأنه ليس موجودا حقا في أي مكان سوى هنا .. بداخلها

كان هنا

ويضحك) .

احتمال مستبعد

* * *

وراء البار عجوز تطبق شفتاها على سيجارة وتملأ كأسا ثم تشير لنادلة مومس أن تحمله لعازف الترومبيت الحزين الذى يجلس وحيدا على طاولة منزوية ـ العازف لا يشبه زوج العجوز الذى مات منذ فترة، ولا يشبه والد النادلة الذى لايزال حيا .. مع ذلك ستشعر العجوز بمتعة غامضة وهى تراه حزينا، وستشعر النادلة بنفس المتعة وهى تراه يقاوم اغرائها بخوف .. العجوز والنادلة لن تعرف أي منهما أبدا أن عازف الترومبيت الحزين بينما يشرب سيفكر فى أن العجوز رغم أنها لا تشبه أمه، وأن النادلة رغم أنها لا تشبه زوجته إلا أنه يشعر بمتعة غامضة وهما تنظران إليه بمنتهى الرغبة في اقتحامه

* * *

اليوم اتصلت بشقيقتي .. سألتها عن زوجها وأطفالها ومعارضها وسألتني عن أبي وأمي وحفلاتي .. قالت أنهم جميعا بخير وأنها تستعد لإقامة معرضها الجديد بـ (أتيليه القاهرة) وقلت لها أن حفلتي القادمة ستكون بعد شهر تقريبا في (بيروت) .. أخبرتها دون تمهيد بكل ما حدث فصعقت وطلبت مني أن أغلق الخط وقالت أنها ستعاود الاتصال بي بعد قليل .. كنت أعلم

أنها ستسرع إلى جهازها لترى ما فعله أبي .. اتصلت بي بعد نصف ساعة وهي تضحك بشدة .. ظللت أنتظر توقفها لكنها كانت عاجزة تماما عن التحكم في نفسها فوجدت نفسي أشاركها الضحك وبنفس الشدة حتى سمعتها تقول :

- يابن الكلب يا بابا !!! .. إيه الإجرام ده ؟! .. بقى أنا مجنونة في مصحة نفسية ؟! .. أحا !!! .. بس بذمتك مش عسل ؟!!!

توقفت عن الضحك ولم أجد إجابة أرد بها عليها فبقيت صامتا .. وجدتها هي الأخرى تتوقف عن الضحك ولا أدري لماذا حكيت لها ما حدث بالأمس في غرفة أبي رغم أنني كنت مقررا ألا أفعل .. صوتها بدا مختنقا ببكاء مكتوم ويحاول أن يبدو مرحا ومتماسكا وهي تقول لي :

- عارف أبوك بيفكرني بمين ؟ .. بالسيد (بلانك) بتاع (بول أوستر) في (رحلات في غرفة النسّاخ) .

قلت لها محاولا إضحاكها من جديد ومادحا في ذات الوقت براعة ذهنها في اكتشاف هذا التشابه :

- إنتي فعلا بنت كلب

ثم سرحت مسترجعا :

(هناك عدد من الأغراض في الغرفة، وعلى كلٍ منها شريط أبيض ملصق على سطحه، ويحمل كلمة واحدة مكتوبة بأحرف كبيرة. على الطاولة المجاورة للسرير، مثلا، كُتِبَتْ كلمة " طاولة ". وعلى المصباح، كلمة " مصباح ". حتى على الجدار، الذي ليس غَرَضاً بالمعنى الحرفي للكلمة، هناك شريط يُبرِزُ كلمة " جدار ". يرفعُ العجوز بصره برهة نحو الأعلى، يرى الجدار، يرى

الشريط المُثبَّت على الجدار، وينطق كلمة جدار بصوت خافت. وما لا نعرفه حتى هذه اللحظة هو ما إذا كان يقرأ الكلمة المكتوبة على الشريط أم أنه ببساطة يشير إلى الجدار نفسه. لعله نسيَ القراءة لكنّه يُميِّز الأشياء كما هي ويعرف أسماءها، أو، على العكس، فقدَ القدرة على تمييز الأشياء كما هي لكنه لا زال يعرف القراءة) .

- إنت رحت فين ؟

- معاكِ ...

- أخبار ساعة (وودي آلن) إيه ؟

- كويسة

- لسه شغالة ؟

- أيوة

- وحشاني جدا .. أنا خلاص قررت آجي (المنصورة) بكرة

- وشغلِك ؟

- مش مشكلة آجي يومين وأرجع تاني

- ماشي

- عايز حاجة آجيبهالك معايا ؟

- لا شكرا

- طيب ماشي .. سلام

- بِسلام

سأنتظر مجيئها .. أعلم أن وجودها لن يغير من الأمر شيئا ولكنني على الأقل

أريدها أن تكون قريبة مني كي تشاركني هذا الاستمتاع الذي لا يصدق بالخوف .. سأنتظر مجيئها وسأحرص تماما على ألا أخبرها بأنني أعلم أنها كانت سارحة مثلي أثناء المكالمة في (رحلات في غرفة النسّاخ) وأن الفرق الوحيد بيننا أنها لم تسترجع نفس المقطع بل استرجعت مقطعاً آخرَ .. يخصّها :

(السيد بلانك يحدِّق في عينيَ المرأة الشابة ويجاهد كي يتذكر من تكون. وبعد عشرين ثانية أو نحوها، يسمع نفسه يهمس كلمة واحدة : آنّا. ويغمره إحساس بموجة من الحب الغامر. يتساءل إن كانت آنّا امرأة سبق له أن تزوجها، أو ربما، إن كان ينظر إلى صورة ابنته. وبعد برهة من تقليب هذه الأفكار في رأسه، تهاجمه موجة جديدة من الإحساس بالذنب، ويعلم أن آنّا ميتة. والأسوأ، يشك في أنه مسؤول عن موتها. ويقول لنفسه، بل لعله هو الذي قتلها) .

* * *

حجرة صغيرة فى منزل عادى .. رجل عجوز نائم على بطنه ونصفه الأسفل عارٍ تماما .. رجل عجوز فاقد الذاكرة والقدرة على الكلام والحركة .. مصاب أيضا بقرحة فى فتحة الشرج .. حوله أبناءه .. ينظفونه من البول والبراز ويبدّلون الضمادات المتسخة بالصديد .. يلعنون المشهد والرائحة والعذاب اليومي .. المنزل شهد مآسي كثيرة .. العجوز لا يزال جهازه العصبى يمتلك قدرة بسيطة على الاحساس بالألم .. الأبناء رغم إدراكهم أن قسوة العالم أقوى من قدرتهم على التحمل إلا أنهم لم يفكروا فى أي علاقة بين هذا وبين

استجابتهم الفورية لأحد الأشخاص الذى نصحهم بضرورة تشغيل الراديو دائما على اذاعة القرآن الكريم داخل غرفة الأب ليكون عند وفاته رحمة ونور له .

* * *

كل يوم بعد أن تعود شقيقتي من عملها بمديرية الشئون الاجتماعية بالدقهلية وبعد أن تساعد أمي في إعداد الغذاء وبعد أن تستيقظ من نوم العصر؛ تجلس أمام قناة (الناس) لتشاهد أفلام السكس .. تنصت بتركيز تام لكافة التأوهات والصرخات اللاهثة عن الابتلاء وعذاب القبر وأهوال القيامة وحب الله ورسوله .. شقيقتي التي في أواخر الأربعينيات ولم تتزوج لا ترى ولا تسمع شيئا .. هي تنتظر فحسب أن تفرح قبل أن تسأم الحياة نهائيا من التسلي بجروحها ويحملها ناس لا يعرفونها ويدفنونها في أرض لا تعرفها وتصير ماضيا غير جدير بأن يتذكره أحد .

شقيقتي تحب أبي جدا .. تحبه لأنه لم يبخل عليها أبدا بالجفاء والقهر والإذلال النفسي .. لأنه نجح في حمايتها تماما من الأضرار القاتلة للرقة والحنان وصون الكرامة .. شقيقتي أرادت أن تكون قوية مثله .. تسيطر بقدر ما تستطيع على الجميع ـ عداه طبعا ـ بأحكام صارمة دون أن يعطلها انتباه عابر لأي أذى يصيب مشاعر أحد .. أرادت الاستمتاع بالإخضاع وكسر النفوس لتحصل على حصانة أبي السحرية ضد المهانة .. هي لم تكرهني ولم تكره أمي .. كانت فقط تحب أبي بقدر ما جعلها تكره نفسها .. بقدر ما جعلها تكره الدنيا وتكرهه .

أختي زرعت (ريحانًا) في أصيص على سور البلكونة .. ستخرج لتقف بجانبه

الآن .. ستشم رائحته الجميلة التي يدغدغها الهواء وهو يحملها متراقصا في كل الاتجاهات .. هل ترين (بيسوا) الآن ؟ .. هو واقف بجوارك بالضبط .. يبتسم بتعب وينظر إليك وأنت تشمين (الريحان) وتراقبين الغبار الذي يسقط من الأصيص .. تراقبين سقوطك داخل (اللاطمأنينة) : (لقد عاينت الإغماء التدريجي لحياتي، الغرق البطيء لكل ما أردت أن يكون، يمكنني القول بتلك الصراحة التي لا تحتاج إلى أن تكلل بالزهور للتدليل على موتها، بأن لا وجود لشيء أحببته أو حلمت به ولو للحظة واحدة فقط، لم يتهشم تحت النوافذ مثل غبار بهيأة حجر، يسقط من أصيص طابق عال. يبدو أن القدر نفسه قد سعى دائما، أولا، إلى إيقاعي في حب ذلك الشيء الذي هيأه بنفسه لكي أكتشف في اليوم الموالي بأنه لم يكن ولن يكون في متناولي) .

(بيسوا) سيظل واقفا هنا يا أختي .. حتى بعد أن تدخلي إلى حجرتك وتقفلين الشيش .. حتى بعد أن تمر الأيام والشهور والسنوات ويولد من يولد ويعيش من يعيش ويموت من يموت .. حتى بعد أن يفرغ العالم من تجشّؤه الأخير .. سيظل واقفا بجوار أصيص (الريحان) مبتسما بتعب .

* * *

الواحدة تقريبا بعد منتصف الليل .. شخير أمي المتقطّع بطبقاته المختلفة ينبعث من حجرة نومها .. أبي في الصالة يجلس القرفصاء على الكنبة واضعا نظارته على وجهه ويقرأ من المصحف بصوت واضح .. شقيقتي في حجرة المعيشة تشاهد إعادة حلقة اليوم من المسلسل التركي (وتمضي الأيام) .. أنا

في غرفتي أمام الكومبيوتر أشاهد (Blade Sling) .. أمي ليست من هواة الأفلام الأجنبية ولكنها لم تنهض للنوم هذا المساء إلا بعد أن أكملت (جسور مقاطعة ماديسون) .. رغم ثقل رأسها وتعب عينيها - ضعيفتا النظر أصلا - من قراءة الترجمة وتثاؤبها المستمر؛ لكنها أدركت أنه لا ينفع أن تذهب إلى السرير قبل أن تعرف نهاية قصة (فرانشيسكا) و(روبرت) .. أسمع أبي يقول : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) .. شقيقتي تلتقط من التليفزيون صورا بكاميرا الموبايل للممثل التركي (Hünel Saruhan) أو (أسمر) .. كان هذا هو الحل الوحيد بالنسبة لها بعد رفضي المتواصل أن أنزّل لها صوره من الإنترنت الذي لا تجيد التعامل معه .. (كارل) أو (بيلي بوب ثورنتون) يحكي كيف قتل أمه وعشيقها .. هل يخفي شخيرك يا أمي حلماً تحولتِ فيه إلى (ميريل ستريب) ؟ .. أبي يقول : (*إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا*) .. شقيقتي تسمع موسيقى نهاية المسلسل بينما تستعرض الصور التي التقطتها وتبتسم .. (كارل) يقول لأبيه بأنه ما كان يجب عليه قتل أخيه الصغير وكان يجب إعطاءه فرصة ليكبر .. أمي تستيقظ على سعال حاد ومتواصل ثم تحاول استعادة النوم بعد أن يهدأ قليلا .. شقيقتي تطفيء ضوء حجرتها وتجذب البطانية لتغطي جسدها وهي تمسك بالموبايل .. أبي يقول : (*وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا*) .. (كارل) يجلس أمام الشرفة داخل مستشفى الأمراض العقلية الذي عاد إليه بعد أن قتل عشيق والدة صديقه الصغير (فرانك) .. أبي يغلق المصحف ويذهب للنوم بجوار أمي .. بماذا سيحلم أبي ؟ .. لا أريد أن أنام .

* * *

أهلا ومرحبا بكم

تعرفون طبعا (كازينو الشجرة) .. المكان الجميل والحميمي جدا الذي كانْ يطل على النيل وأزاله من الوجود أحد محافظي الدقهلية السابقين الذي لن ألوّث هذه الرسالة بذكر اسمه .. في الثمانينيات وبينما كنت لازلت في منتصف الخمسينيات من العمر لم يكن لدي سوى صديق واحد .. صديقي الذي أخبرتكم عنه في رسالتي الأولى والذي أصبح بعد ذلك مدمنا للمخدرات وخسر كل الوظائف التي عمل بها وطلّق زوجته وأهمل أولاده وصار يقضي وقته متسكعا في الشوارع والمقاهي ويعيش على مساعدات الآخرين .. كنت أجلس أنا وهو كل مساء في (كازينو الشجرة) ونستمتع بالهدوء وبالنيل وهو ينساب بصمته الموسيقي الساحر وبالأضواء الرقيقة التي كانت تنبعث من وسط ظلام (طلخا) على الجانب الآخر من النهر .. هل تعرفون ما هو السبب الذي كان يجعل صديقي يأتي معي يوميا إلى هذا المكان ؟ .. لم تكن قدرة صديقي على التصريح المباشر برفضه لصحبتي قوية بما فيه الكفاية .. كان لأسباب تخص طبيعته وتكوينه الشخصي عاجزا عن أن يخبرني بوضوح بأنه لا يريد أن يكون صديقي وبأنه لا يريد أن يذهب معي إلى أي مكان .. كان مجبرا على تحملي لا لشيء سوى لأنه لم يكن يريد أن يجرحني وهو يعلم أنني لا أعرف أحدا غيره .. كان من السهل جدا على أي شخص لو رآه جالسا معي وقتئذ أن يتأكد من أنه يعاني من الضيق والملل وأنه يكتم مشاعره بصعوبة بالغة حتى لا يؤذي الرجل الأصلع القصير

والمتليء قليلا الذي يجلس أمامه والذي لا يتفوه إلا بكل ما يمكن تصوره من هراء .. أي أحد يراه وأنا أولّهم بالطبع ولكنني كنت دائما أعمل نفسي غير منتبه ولا آخذ بالي من شيء .. كنت أستغل عدم قدرته على طردي من حياته في الاقتراب منه أكثر حتى أظل معه أطول وقت ممكن .. لم أكن أعتبر نفسي ساديا لأنني لم أكن أريد سوى أن أتكلم فحسب رغم تأكدي من أنه أمر شاق جدا على أي أحد أن يسمعني .. لا أعلم هذا بناء على استيعابي لواقع يفترض أن قناعاتي تجاه العالم ليست إلا محض تفاهات ثقيلة الدم .. بالعكس .. أنا منحاز جدا لنفسي كإنسان طبيعي يفكر في أشياء معقولة ويشعر بمشاعر منطقية وبالتالي فكلماته إذن من الضروري أنها تحمل مبررات خروجها إلى الدنيا .. أعلم أنه أمر شاق جدا على أي شخص أن يسمعني لأنني ببساطة مررت بهذا كثيرا : في البيت .. في العمل .. مع صديقي .. الأمر أصبح بالنسبة لي حقيقة مسلّم بها وغير مفهومة في الوقت نفسه .. لماذا لا يحب أحد أن يسمعني رغم أنني واثق لدرجة اليقين أن حديثي يشبه حديث أي أحد ؟!

في كتابه (ثلاثة أيام عند أمي) تحدث (فرانسوا فايرجان) عن مشروع كتاب له حول البراكين سيصف فيه الجثث المقذوفة من القبور بسبب هزة زلزالية، والأجساد المدفونة حديثا مختلطة بالهياكل العظمية ومُطلقة بقوة نحو السماء كما لو كانت الباقة الأخيرة من ألعاب نارية جنائزية .. قرأت هذا الكتاب مؤخرا وتذكرت أهم اللحظات التي كانت تمر عليّ يوميا وأنا جالس داخل (كازينو الشجرة) في الثمانينيات .. حينما كنت أصمت تاركا صديقي ليريح رأسه قليلا من صوتي وأثبّت بصري على النيل .. كنت أتخيل زلزالا

عنيفا يصيبه فجأة وتثور مياهه بشدة ثم يخرج منها كائن خرافي برفقة أضواء ملونة وساطعة ببذخ متوهج ويظل معلقا بين السماء والنيل ومحاطا بوجوه سعيدة وضاحكة لأحبائي من الموتى .. كائن لا يمكنني تحديد ملامحه ولا تفاصيل هيئته ولكنه سيطلب مني ألا أخاف .. يعدني بأن كل شيء سيتغير وأنني حينما أعود إلى البيت بعد أن أترك صديقي لن أظل أبحث وأفتش عن أي سبب كي أشتم زوجتي وأجعلها تبكي - زوجتي التي توفيت منذ فترة كما أخبرتكم .. عن أي سبب يجعلني أصفع ابني بقوة على خده الصغير - ابني العاطل الذي تجاوز الثلاثين الآن ولا يزال يعيش على فلوسي كما أخبرتكم - ولا عن أي سبب يجعلني أهين ابنتي بقسوة - ابنتي المريضة بإحدى المصحات النفسية كما أخبرتكم أيضا .. يعدني بأنني لن أظل أتعذب بينما أسأل نفسي قبل النوم : (لماذا أفعل هذا ؟!) .. بينما أمتد بهذا التساؤل في خط مستقيم دون توقف محاولا العثور على أي كائن خرافي .

احتمال مستبعد

* * *

على مقعدين من مقاعد الجمهور بمسرح (الابيه دي روز) أجلس أنا وصديق أبي الباحث في تاريخ الكوميديا والذي أصبح صديقي أنا أيضا .. كنا نشاهد إحدى مسرحيات (نجيب الريحاني) و(بشارة واكيم) و(روز اليوسف) وفي ذروة اندماجنا الممتع مع المسرحية وجدت نفسي على المسرح آخذ مكان (نجيب الريحاني) ووجدت صديقي يأخذ دور (بشارة واكيم) بينما أخذت مكان (روز اليوسف) طفلة صغيرة وجميلة جدا كالملاك اسمها (إيمان) كانت زميلتي في المدرسة .. كنت أحبها جدا ولكنني لم أرها على

الإطلاق بعد انتهاء المرحلة الابتدائية .. أنا وصديقي ظللنا نتأمل أنفسنا من مقاعد المتفرجين ومن فوق خشبة المسرح في وقت واحد، وفجأة وجدت نفسي أتوقف عن التمثيل وأحتضن (إيمان) بشدة ووجدتها تحتضني هي أيضا بشدة مماثلة وتبتسم .. من عينيها كانت تتساقط دموع غزيرة فرحة تشبه تماما الدموع التي تنزل من عينيّ .. كان الأمر ظاهريا يبدو كخروج عن النص لكنه في حقيقته الراسخة بداخل كل منا لحظتها كان التزاما به وتطويرا حميميا له، ويمحو في نفس الوقت أي خطوط تفصله عن الواقع .. على كراسي الجمهور وبينما كنت وصديقي نراقب المشهد الرائع بيني وبين (إيمان) التفت كل منا للآخر وعلى وجهه نفس الابتسامة الرائقة والمنتشية بدفء .. ألصقت شفتيّ بشفتي صديقي وظللت أقبّله وأنا أشعر بحب قوي وبامتنان بالغ وعميق للغاية لكل شيء .. للزمن وللمكان ولكل ما ينتمي إلى هذه الحالة ويشاركني فيها .

سيظل منتصبا وأنا أنهض وأغسل وجهي وأتناول الفطور .. سيظل يدغدغني من تحت الكلوت وهو يتمطى ويتململ وينتفض ويحثني على الإمساك به وتحسس سخونته التي تريد التخلص فورا من ثورتها المكتومة .. ستظل الساعة التي تحمل وجه (وودي آلن) في انتظار أن أعيد ضبطها على الاستمناء الجديد لتحسب كل ٦٠ دقيقة تمر بمجرد أن يخرج صديقي من الحمام ويبدأ عضوه في الانكماش والاستكانة .

* * *

عليك أن تكون مسليا جدا يا صديقي .. أن تضحك كثيرا لتضحكني .. أن

تتجنب الحديث عن الموت، وعن الأمراض التي لا أمل في الشفاء منها، وعن الحوادث السيئة المفاجئة التي تحدث للآخرين .. عليك أن تكون أليفا .. أليفا جدا .. بحيث أستطيع أن أصوب مسدسي إليك بحرية .. دون أن تكون قد غافلتني وأفرغته من الطلقات .

* * *

أن أجد موبايله مغلقا ثم أن يخبرني بأنه كان في (مشوار مهم) حينما أعاود الاتصال به بعد ساعة أو ساعة ونصف ثم أن يطلب (سحلب) فور أن يأتي إلى المقهى بعد قليل؛ فهذا يعني بنسبة كبيرة جدا أنه كان نائما مع (أم محمد) في بيتها أو مع (رشا) في بيت (أم محمد) أو مع (مدام ندى) في بيت (أم محمد) أيضا .. (أم محمد) المومس والقوادة التي رماها القدر في طريقه والتي - بحسب ما يحاول أن يؤكد لي - هي من تطارده وتدعوه للنوم معها وتسلّط عليه شراميطها للاتصال به وإغوائه مثل (رشا) التي لم تتجاوز العشرين والتي لا تطلب أكثر من ثمن كارت شحن بـ ١٠٠، و(مدام ندى) المدرّسة التي تعيش مع ولديها بعد سفر زوجها إلى السعودية والتي تتفاخر كثيرا بأنها - رغم كل شيء - ضيقة من تحت .. لم يكن صديق أبي الباحث في التاريخ الإسلامي في حاجة لبذل جهد أكبر للعثور على إجابات أقل سهولة من (الدهشة والفضول وعدم التصديق والتحسر على أحوال المسلمين) لتبرير ذهابه إلى بيت (أم محمد) ورده على مكالماتها هي وباقي الشلة التي يقول أن علاقته بهن لم تتجاوز الكلام العادي، وبالطبع اللوم والاستنكار، وأيضا - في المقام الأول - العطف والنصح بالرجوع إلى الطريق القويم .. صديق أبي كان يمكن ألا يحكي لي أي شيء أصلا ولكنه أراد أن

يحكي .. لم أشعر للحظة واحدة أنه يريد التباهي بشيء سواء كان ملاحقة العاهرات له أو ثباته الأخلاقي وصلابته الإيمانية في مواجهة اقتحامهن لحياته .. كان يريد أن يحكي كأنه يسعى للتخلص من ثقل ما .. ندم أو حيرة أو بهجة ناقصة أو خوف أو خليط تمتزج فيه كل هذه المشاعر ببعضها .. يريد أن يختبر في كل مرة هل الفضفضة تريح حقا أو على الأقل تخفف أم لا .. في نفس الوقت لم يكن يستطيع أن يحكي لي كل شيء .. كان عليه أن يتوقف عند حد معين وضعه لنفسه ويعرف جيدا أن تجاوزه لن يعني سوى وقوعه في جحيم الإدانة .. هذه الحسابات لم تخص أحدا سواه لأنني متأكد للغاية من أنه طوال سنوات صداقتنا لم يبدر مني ما يدل بأي حال من الأحوال على أنني من ذلك النوع البشري الذي يدين الفحشاء .. بالعكس تماما .. لكن صديقي ظل يحكي ما يريده فقط .. كان يعرف بالتأكيد أن نصف الابتسامة التي تظهر على وجهي ليست سوى دليل على أن هذا الجالس أمامه ويستمع إليه دون أن يشكك أو يعترض متمسك بادعاء التصديق ربما حتى لا يسبب له الإحراج .. كان هذا صحيحا بالفعل ولكنني أيضا أستمتع بذلك .. بارتباك عينيه وملامح وجهه، وبالكلمات المتوترة المتناثرة من بين شفتيه .. أستمتع باقتناعه الداخلي أنه لا يوجد أي قناع من الثقة المدعية يصلح لحجب الحقيقة عني .. ليس بسبب اللامنطق الطافح من حديثه عن دوره في هذا الفيلم الهندي مع هؤلاء الشراميط فحسب وإنما لأنني أعرف أنه رجل عادي هائج، ومن الطبيعي جدا أن يحقق حلمه بالنوم مع امرأة أخرى غير زوجته لو سنحت له الفرصة .. في كثير من الأحيان أشعر أنه يريد أن يتكلم بصراحة مطلقة، ولكنه يخشى على صورته عندي كرجل كبير في السن ومحترم

وكاتب إسلامي تعد قضية الأخلاق من أهم الموضوعات التي يشتغل عليها في كتبه وأبحاثه .. كانت حساباته ومعاييره التقليدية أشد صلابة من محاولاتي المستمرة والغير مباشرة لمساعدته على تخطي هذا الحاجز النفسي بيننا .. لم يكن أمامه سوى الاستمرار في تحريف الواقع وخلق طبيعة مثالية له بقدر ما يستطيع حتى وهو يعلم أنني لا أصدقها الأمر الذي يجعله لا يفضل التحدث كثيرا عن هذا الموضوع ويقوم بتغييره فورا .. كلمتان أو ثلاثة بشكل خاطف ومتعجل يعقبها استرسال طويل واستطراد لا يهدأ لحكايات متشعبة ومملة عن زوجته حادة الطباع واللسان والمسرفة بغباء، وعن أولاده المتعثرين في التعليم، وعن أصدقائه من الكتّاب الإسلاميين داخل وخارج مصر .

بتتابع منتظم تتسق هزات رأسي مع (اممم) بما يعني أنني أتابعه جيدا، ولكنه لا يعرف أن ما أتابعه حقا هو أجساد النسوة العابرات اللاتي تتداخل حولتهن الكبيرة مع أفكاري المتخبطة في اتجاهات عشوائية بعيدة تماما عن طاولة المقهى .. بين حين وآخر أجبر نفسي على الانصات إليه للحظات تعيدني إلى السياق المتواصل لكلامه فأحصل على حماية من العجز عن الرد الذي سيفضح انفصالي التام لو سألني بشكل مباغت أو طلب رأيي فيما يقول .. فجأة أسمعه يقول : بس عارف أحب المسلسلات الإذاعية القديمة إلى قلبي هي المأخوذة من كتب التراث، وياسلام بقى لو كانت عن حكايات ونوادر الظرفاء القديمة، وياسلام أكتر لو كانت بطولة ممثل زي عبد الرحمن أبو زهرة مثلا أو جمال اسماعيل أو فاروق نجيب ...

بفرح طفل أخذ من حجرة فئران مظلمة إلى حديقة ألعاب سماوية يتشبث ذهني تلقائيا بحديثه .. لكنه بعزيمة المذنب الذي ينبغي عليه التوبة فورا؛ يسرع

بعد لحظات قليلة عائدا بي إلى حجرة الفئران : قمت قلتلها لازمته إيه كل البيض إللي في التلاجة ده ؟ .. ما تشتري على القد ؟ .. تقوم الولية تقولي : علشان لو جالنا ضيوف نبقى عاملين حسابنا .. قال ضيوف قال !! .

* * *

داخل حجرة الصالون جلس أبي أمام صديقه .. الاثنان ينظران إلى بعضهما في صمت ولكن لم تكن لهما نفس الملامح .. كان وجه أبي خاليا من انطباع محدد مما جعله يبدو مستكينا في منطقة وسط بين التجهم والعادي، أما صديقي فكان على وجهه ذلك الانطباع الغريب الذي يشعرك بتخمة من الانفعالات المتناقضة فبدا وكأنه يريد أن يضحك ويصرخ ويبتسم ويتأسف ويسأل بذهول في وقت واحد .. كنت أعرف أنه مشحون عن آخره وأن وراء صمته عجز حاد وهائل عن الاستيعاب والتصديق .. كان يريد أن ينفجر في وجه أبي مطلقا كافة مشاعر الألم والغضب والاستنكار والتعاطف التي في داخله .. (ما تفتحش معاه الموضوع) .. قلتها لصديقي ونحن لا نزال في الشارع وقريبين من البيت مدركا أن علم قدرته على الكلام ستستمر .. منذ ساعة تقريبا كنت بصعوبة بالغة أواصل حكي ما فعله أبي على الإنترنت وما كتبه عنا جميعا بما فيهم هو .. تحوّل وجهه - مثل أفلام الكارتون - إلى كرة شاحية ذات قسمات متشنجة ببلاهة وتبرز منها عينان متسعتان بشدة .. لم يكن مستغربا أن تختلط التفاصيل التي أحكيها بضحكاتي وشخراتي القوية على كل ما حدث، وعلى حالة العته المفاجيء التي أصابته وهو يسمع .

دخلت أمي ووضعت صينية الشاي على الطاولة ثم جلست بجوار أبي .. دخلت أختي وصافحت صديقي ثم جلست بجوار أمي .. كأن كل من يدخل

الحجرة كان يحفظ دوره ومكانه جيدا داخل هذا المشهد الصامت .. فجأة نظرت إلى أختي .. رأيت عينيها غائبتين تماما في حِجر أبي .. كانت أزرار بنطلونه القماشي مفكوكة ومن وراءها فتحة لباسه التي كشفت بدورها عن سنتيمترات قليلة معتمة يحتمل جدا أن تكون جزءا من عضوه .. ظلت أختي تتمعن بتركيز بالغ في تلك السنتيمترات المبهمة .. نظرت إلى أمي .. كان كوب الشاي بين يديها يواصل فقد سخونته دون أن تشرب منه شيئا .. لم تكن تنظر لأحد منا .. كانت تتطلع إلى الأرض حيث الزخارف الملونة والمتشابكة للسجادة التي بدت وكأنها تراها للمرة الأولى أو تتأمل شيئا ما لم تكتشفه فيها من قبل .. بتلقائية بدأت التحديق فيما تتفحصه أمي .. لا أعرف لماذا رأيت الزخارف الآن أشبه بأورام سرطانية متعانقة ذات ألوان مختلفة وتسبح في بحيرة دم .. هل هذا ما انتبهت إليه أمي أيضا ؟ .. لا يزال أبي وصديقه يتطلعان إلى بعضهما في صمت .. ما الذي جعل صديق أبي يصبح صديقي ؟ .. لم يكن هناك أي سبب يتعلق بأبي، ولكنني لمست جانبا من شخصية هذا الرجل في أول لقاء بيننا جعلني أحب صحبته .. جانب ينحاز إلى الماضي ومحاولة استرداده ويتعامل مع الذكريات كمجوهرات ثمينة مقفول عليها داخل أكثر خزائن الروح حصانة .. في لقاءاتنا الأولى كان ينتهز أي فرصة كي يخرجها ويعرضها بفرح لأشاركه الاحتفال بها ثم أصبح ذلك أمرا نادرا .. لم أجد أي قدر من الغرابة في صداقة كهذه والتي يتمسك فيها الواحد بالآخر لمجرد أنه يأمل في كل مرة يتقابلان فيها أن يسمع منه حديثا حميميا دائما عن أشياء قديمة، أو ينجح في تحفيزه ـ دون أن يثقل عليه ـ للاستسلام للحكي عن الحنين .

لو كان على العالم أن ينتهي الآن فليس هناك مشهد يناسب هذه النهاية أجدر من هذا السكون المحنط داخل حجرة الصالون .. كائنات جالسة لا تتكلم وتنظر في اتجاهات مختلفة دون أن يحرك أي منها عينيه .. كأن كل منهم يضم الأماكن والأزمنة جميعها في قلبه بما يسمح له بألا يكون مجرد كائن يجلس على كرسي فحسب بل جالس أيضا داخل نفسه وداخل كل شخص من المحيطين به في نفس الوقت .. داخل هذا المتحف الكوني الصغير الأقرب إلى نصب تذكاري لا ينقصنا حقا سوى أن يدخل من الشباك النصف مفتوح كل ظرفاء القاهرة القدامى : أشعب الطمعاع، عيسى بن دأب، أبو مريم الحنفي ، حسين الخليع، الشيخ علي الليثي، الدكتور بكير، محمد البابلي، إبراهيم المويلحي، محمد توفيق، فؤاد الصاعقة، الشيخ إبراهيم الدباغ، أحمد جاد، الشيخ قنديل، الدكتور محجوب ثابت، الشيخ عبد العزيز البشري، حسين الترزي، المعلم دبشة الجزار، كامل الشناوي وغيرهم .. كل هؤلاء يستحقون الخروج من (خبايا القاهرة) والوجود في هذه اللحظة ليملأوا فراغ الحجرة بنوادر عن نظراتنا وملامحنا وعن الحيلة التي يمكن أن يعثروا عليها في سكوت كل واحد منا .. لكنني وأبي وأمي وأختي وصديقي سنضحك كلنا فجأة بقوة كأن بيننا اتفاق سري على طعن الصمت في ظهره دون تمهيد .. سنظل نضحك حتى مع توقف الظرفاء الذين يجلسون معنا عن الضحك .. الظرفاء الذين سينظرون إلينا في حيرة ثم يتطلعون إلى بعضهم البعض بمنتهى التجهم والارتباك .. الذين سيبدأون تباعا في النهوض والتحرك بتعثر ناحية الشباك الذي دخلوا منه، وسيشعر كل واحد منهم بأن دموعه بدأت تتساقط من عينيه قبل أن يختفي تماما وهو لا يزال يسمع صوت

ضحكاتنا القوية .

* * *

سيف غير مرئي .. يطيح برأس قرصان الانترنت العجوز بعيدا ثم يعيدها في نفس اللحظة فوق عنقه .. يقول له دائما : استمر .

* * *

أهلا ومرحبا بكم

باعتبار رواياته متنٌ أتصور أنه على الروائي إذن أن يوثق الهواجس الممكنة التي تمثل هوامش هذا المتن .. ما الذي يجعلني أعتبر الروايات متنٌ من الأساس ؟ .. أليس سؤالا كهذا من المحتمل جدا أن يتخلّق في أذهانكم ومنه تتوالد أسئلة أخرى عن معنى الهامش وطبيعة الهواجس وأهمية التوثيق ؟ .. دعوني أخبركم أولا أنها مسألة شخصية بحتة ـ رغم تأكيداتها عند الكثير من الروائيين الآخرين عبر التاريخ ـ ولا أطمح إلى استدراجها نحو شرك التعميم كي تكتسب بداهة هشة بوصفها حقيقة .. أنا فقط أتحدث عن نظام خاص قائم على قناعات وأسس ذاتية أهمها الإيمان بأن الجدل المختص بإنتاج الاحتمالات والإلهامات التعريفية عن الروائي كإنسان عادي يكمن في رواياته فقط وليس في أي محيط آخر خارجها .. ثانيا بدلا من قيامي بتثبيت حكمة تجريدية تلو الأخرى لشرح المقصود بهوامش ما يسمى بـ (العالم

الروائي) وضرورة توثيقها أجد أنه من الأصوب حقا هو عرض قدر محدد من الهواجس الشخصية التي انتقيتها من الفترة الزمنية التي كتبت فيها هذه الرواية :

(على الروائي قبل أي شيء أن يعرف تماما ويظل محافظا بجرأة وثبات على هذه المعرفة بأن الماضي الخاص بأي ملحوظة يضمها للهوامش كان جيدا للغاية وأن كل ما عليه ـ فقط ـ خلال ما تبقى من حياته أن يحرص بقدر ما يستطيع على استمرار حالة هذا الماضي ودعمها وتطويرها .. فائدة هذه المعرفة هي السعي لتفادي آلام الحسرة بأي شكل من الأشكال على سنوات عمرك الكثيرة الماضية التي مرت دون تحقيق الأهداف التي تحويها ملحوظات الهامش والتي ربما لا ترى أيضا دليلا أو إشارة ما على تمكنك من تحقيقها قريبا .. هذه الأهداف ربما لم تتحقق أبدا أو ربما لم تتحقق بالكامل أو تحققت بشحوب غير مُرضٍ أو أفرزت أهدافاً أخرى بينما تتحقق .. على الروائي أن يطهي طعاما شهيا بنفسه وألا يتوقف أبدا عن الحصول على وصفات مختلفة من التليفزيون والإنترنت مع مراعاة التنوع بين المطابخ الشرقية والغربية .. عليه أن يستمتع بينما يتجول لشراء المكونات اللازمة لإعداد الطعام ويتخيل رائحته ومذاقه والجو العام الذي سيحيط به وهو يأكل .. عليه أيضا ألا يهمل الأكل في المطاعم الجميلة المختلفة أو أخذ الطعام الجاهز إلى بيته أو طلبه بالتليفون خاصة (البيتزا) مع ملاحظة أن يواظب على تذكير نفسه بأنه لا يوجد أحد في أي مكان وزمان أكل جميع أصناف الطعام الشهية .. على الروائي أن تتسم مشروباته بالتنوع فبالنسبة للساخن عليه أن

يبدل مثلا بين الشاي والقهوة والكابتشينو والنسكافيه، أما بالنسبة للبارد فعليه أن يشرب عصائر ومشروبات غازية وأي نوع من البيرة على أقل تقدير، بخصوص التدخين فأمامه السجائر والبايب والشيشة المهم أن يكون للتدخين وجود في حياته .. عليه أن يرتدي ملابس تساير الموضة الشبابية وتتماشى مع العصر بصرف النظر عن سنّه مع الأخذ في الاعتبار أنه يمكنه بالطبع إحداث نوع ما من التوازن بين هذه الملابس وبين ملابس تنتمي لطبيعة أخرى يقرر أنها أكثر ملائمة لمرحلته العمرية في حال أراد التخفيف من عنف الاصطدام بينه وبين التقاليد التي تُسيِّر القطيع الذي يعتبره خروفا من خرفانه رغما عنه .. عليه أن يحرص طوال الوقت على نظافته الجسدية وأن يعتبر في نفس الوقت بقاءه مدة طويلة دون استحمام وعدم حلاقته لذقنه وشعر رأسه وإبطيه وعانته، ولا تشذيبه لحاجبيه وأظافره أن ذلك بمثابة وسيلة للاستمتاع بجماليات القبح وتأمل ضروري لمنطق النظافة المضادة ومبرراته الفلسفية اللائقة بانعدام الكمال وغياب الحقيقة وشراسة أوهام الجمال وزيف معاييره التقليدية التي تحكم العالم .. على الروائي أن يمارس الجنس كثيرا ومع نساء كثيرات سواء كان متزوجا أو غير متزوج .. عليه أن ينتهز دائما كل الفرص المتاحة للاستماع إلى الموسيقى خاصة السوفت والجاز والكلاسيك وبالطبع الاستماع للأغنيات الجميلة التي يحبها - عليه أن يجعل من بيته مكانا أنيقا ومريحا بالنسبة له أولا قبل الآخرين وأن يجلس خارج المنزل في أماكن أنيقة أيضا .

في مقاله (مبدأ عدم اليقين) الذي ترجمه " حسين عجه " بمجلة الروائي في ٢٨ أيلول ٢٠٠٨ أصدر (آلان روب غرييه) حكما (يقينيا) بأنه من

المستحيل أن يتعاشر نمطان من السرد : الأول هو أن تطرح الحقيقة التي تحدد الهوية المدنية الشخصية على طريقة (بلزاك) حيث الاستخدام التاريخي للماضي الذي يجعل الله هو الذي يتكلم باعتبار العالم مفهوما عند الراوي ومن ثم قادر على تفسيره لنا، الثاني : هو أن يتحدث الكائن البشري عن العالم لأنه لا يفهمه مثلما فعل (ألبير كامي) في (الغريب) مثلا ومن خلال هذا الحكم أراد (غرييه) أن يشرح لماذا يكتب وكيف أنه لم يفهم العالم بعكس (بلزاك) لكنني وجدت نفسي بعد قراءة المقال راغبا في الاستقرار على فكرة أن (غرييه) لم يكن يطمح على مستوى أعمق لدفعنا إلى تصديقه كليا والتعامل مع هذه التفرقة بين هذين الضدين السرديين بوصفها يقينا خاصة وأن موضوع مقاله الأساسي كان (علم اليقين)، هذا إضافة بالطبع لاقتناع مسبق عندي بأن على السرد عدم التخلي عن هاجس الخداع أو (الاشتغالة) التي من أهم تجلياتها في تصوري هو أن تتحدث عن العالم باعتبارك تفهم حقيقته وتستطيع تفسيرها للآخرين وفي نفس الوقت تعطي هؤلاء الآخرين ما ترى أنه يلزمهم لاستنتاج أنك لا تفهم أي شيء .

على الروائي أن يعد ألبومات صور مختلفة وينشرها على الإنترنت : شخصية كالتي تلتقط في البيت والشارع والأماكن العادية الأخرى سواء كان بمفرده أو بصحبة أصدقاء مثلا، وصور خاصة به كروائي كالتي تلتقط له وهو جالس في حجرة مكتبه أو وهو واقف أمام مكتبة حيث تتراص رفوف الكتب الكثيرة وراء ظهره أو أثناء الندوات وحفلات التوقيع، وصور الماضي التي تحتضن ذكرياته وهو طفل لوحده أو مع أسرته أو زملاء المدرسة .. عليه أن يكثف من وجود النباتات والزهور في بيته سواء كانت طبيعية أو صناعية داخل

البلكونة وفي كافة أنحاء المنزل وحجراته .. عليه أن يملأ حوائط شقته بلوحات الفن التشكيلي والصور الفوتوغرافية التي تنحاز إليها ذائقته وأيضا المناظر الطبيعية الجميلة .

هناك الكثير من الأعمال الأدبية التي كتبت عنها كانت تحفزني للكشف عن الصلات التي تربط بينها وبين فكرة الزمن الميتافيزيقي (اللامكان) أو دوام الكينونة عند (برجسون) أو المرض بوصفه الحالة النموذجية للحياة عند (دولوز) أو تحريض الهوامش على المتون عند (دريدا) لكن تظل الاستشهادات والمقارنات وكشف العلاقات بين النصوص ونظريات الفلسفة في مقالاتي النقدية قليلة ونادرة : ثمة خصوصية يخسرها تحليل العمل الأدبي ـ أحيانا ـ لصالح الاستشهاد بالنظرية لأنه حتى مع وجود وشائج في التفكير والمقاربة والاستنتاج تظل هناك قراءة ما تخصك وحدك " كتابة مستقلة " لا تتأسس على شروط الآخر ومهددة بالذوبان ومن ثم التلاشي داخل النظرية، نفس الأمر ينطبق على الكاتب أيضا حيث يخسر النص إذا تم اقتياده لتبعية من هذا النوع لن تدعم وجوده في العالم كحالة خالدة تستوعب كافة النظريات المحتملة وتتخطاها في نفس الوقت بل ستخلم النظرية نفسها كقانون أو كسلطة رغم أنها لا تمثل إلا نفسها كأي نظرية أخرى .

على الروائي أن يمارس ألعابً مختلفة كالبلياردو والبلايستيشن مثلا .. عليه أن يولي عناية خاصة بصور طفولته وألا يكتفي بنشرها على الإنترنت فقط أو حفظها في ألبوم بل عليه أيضا أن يعلّق نسخا منها على جدار واسع في بيته مخصص لها مع الحرص على انتقاء بروايز غاية في الأناقة توضع فيها ..

عليه أن يكتب من وقت لآخر يوميات عن حياته ومشاريعه الروائية وعن عمله ككاتب بشكل عام وينشرها في مدونته .

يؤكد (أمبرتو إيكو) على أننا نكتب لقارئ وأننا بالكتابة نريد أن نقول شيئا ما لشخص ما وهذا ما يدفعني للتفكير دائما في أن الكتابة ليست - ولا يجب أن تكون - فعلا مسالما أبدا بل تمثل طريقة مضمونة لاكتساب أعداء جدد بقدر الآخرين المحتملين الذين سيعتبرونّ النص صديقا يمكن قبوله في حياتهم بشكل ما، على الكاتب أن يعتبر العداوة مكسبا يتساوى أو قد يفوق أحيانا الصداقة مع الأخذ في الاعتبار أن القارئ النموذجي بالنسبة له هو من يمكنه تجاوز النوايا الصريحة للكتابة وألا يتصور مثلا أن الكاتب يسعى لتصفية حسابات مع أحد .

على الروائي أن يخصص رفا أو علة رفوف في مكتبته للكتب التي يقرر أنها الأكثر قربا من أفكاره ومشاعره والأكثر انتماءاً لذاكرته ورغباته واستفهاماته عن الحيلة والموت .. عليه أن يذكّر نفسه أولا بأول بعناصر الفرح الحاضرة دائما، التي تتحالف لترعى وتغلّف احتفاله السري والحميمي بالعيش وبكتابة الروايات؛ كالكتب والأفلام واللوحات والصور والموسيقى والأغنيات والتدوين وكتابة الشعر والقصة القصيرة والقراءات والمراجعات النقدية والترجمة والدراسات الفلسفية واليوميات واسترجاع الذكريات والجنس قبل أي شيء .

لابد أن يكون (الإله) أيا يكن طاهرا؛ لأنه حينما يكون كذلك سيكون للعالم حكمة ماورائية طيبة وهدف جميل غير مرئي مهما كان هذا العالم قاسيا أو ظالما أو بلا معنى .. لن يكون الموت شريرا يلقي بنا في العلم بل سيصبح

ممرا منطقيا ينقلنا لعيش مباشر مع (طهارة الإله) التي لم تتكشف لنا ملامحها بشكل كامل في الحياة وبالتالي لم نتمكن من التعرف على حقيقتها وكافة مبرراتها وتدابيرها القدرية .. حينما أراد (هيدجر) مثلا تحرير نفسه من اللاهوت ورفض إعطاء الله صفة الوجود كسائر الموجودات باعتباره منزها ثم جعله رسولا للـ (الألوهية) التي تمثل الفضاء الذي يسمح للكائنات بأن تتجلى في الوجود كان يسعى بشكل أو بآخر للتأكيد على هذه الطهارة .. كان (هيدجر) ينتظر عودة الآلهة المنسحبة متسلحا بصموده الروحي وبدوافعه الدينية وبقدرته على خلق التوافق بين الطمأنينة والقلق كما كتب عنه (زهير الخويلدي) في أحد مقالاته .. كان بينما يتساءل " هل ستظل الآلهة ممتنعة عن التجلي ؟ " كان خائفا من أن تظل فعلا كذلك، وكان بينما يتساءل " هل سيشرق نهار المقدس ؟ " يتوسل في أعماقه أن يشرق سريعا ومرعوبا لأبعد مدى من مجرد تصور ألا يحدث هذا الشروق .. لابد أن يكون (الإله) طاهرا مهما فعل وحتى دون أن يوضح أسبابّ تفسر ما فعله .. لابد أن يكون هناك فحسب حتى لو لم يكتسب هذه (الطهارة) إلا بعد نهاية العالم .. لن يسأله أحد عن أي شيء .

العلاقة الشخصية ضد النص .. عدم معرفة القارئ بالكاتب كإنسان تحمي النص من كافة الصراعات العادية التي يمكن أن تتوفر لدى فردين لديهما تاريخ حياتي مشترك .. المعرفة الشخصية تفقد النص المفاجأة حيث الطرف الآخر (القارئ) لا يعتبرك غريبا وبالتالي يتصور أن أفكاره الناتجة عن تجاربه معك هي يقينيات لابد أن تمر إليه من خلالها أي حالة تصدر عنك بما فيها الكتابة طبعا .. يبقى النص محتفظا بأشباحه طالما ظل حاملا لغموض

كاتبه وبالتالي عمله القاريء عنه .. بصرف النظر عن المصير الذي ستنتهي إليه العلاقة بين النص والقاريء بعد القراءة .. الكاتب نفسه لا يعتبر القاريء داخل ورطة العلاقة الشخصية قارئا حقيقيا .. يعتبره بسبب الخبرة التي تجمعهما متلقيا مستهلكا لا يتوقع جديد منه يكشف عن عمق محتمل داخل النص مثلما يمكن أن يفعل وعي قاريء غريب ذلك .. يريد الكاتب ـ كتعبير وارد عن فهمه أو تعريفه للكتابة ـ أن يشعر ويرى أثر أظافره على جلد العالم الذي لم يسبق له ملامسته من قبل والقاريء حينما يكون صديقا / عدوا يصبح جزءا من جلد الكاتب نفسه وليس جلد العالم .. الكتابة تحقق خلودها حينما لا ينتمي أحد للآخر .. حينما نتحول إلى مخلوقات فضائية تسكن كواكب متباعدة وتتواصل فقط عن طريق تبادل الرسائل التي تحوي أفكارها عن الوجود مع احتفاظ كل منا بإدراكه عن الآخر بأنه شخص مثله يعيش نفس الحياة وسيموت نفس الموت .

كل ما حدث ـ أيا يكن ـ يندرج في نطاق الطبيعة العادية للعالم .. الحياة المألوفة المستمرة منذ الإنسان الأول وحتى الإنسان الأخير .. بالنسبة لي ليست هناك معجزات أو أحداث خارقة .. كل شيء لا يزال ينفذ مهمته بنفس المنطق وبنفس الثبات الذي لا يمكن أن يصيبه أدنى تغير، وللدرجة التي تبدو معها الجدوى أو الهدف الذي تقوم على أساسه هذه المهمة لا يتجاوز استمرار الحدوث بهذا الشكل إلى ما لا نهاية .. مهما تعاقبت السنوات ومهما اختلف البشر والأماكن والأحداث .. ليس هناك ما غيّر العالم فعلا أو بدل طبيعته .. يظل كل ما يمكن أن نعتبره أو نظنه إعجازا أو تغيرا أو تبدلا يظل دائما سجين الحدود الأزلية الغامضة للكون .. سجين

الصمت اللازم لأن تبقى الحقيقة ـ أي حقيقة ـ التي يحتاجها العالم كي يتغير فعلا متوارية بإحكام داخل الغيب حيث لا يمكن أن تتحول الحقائق إلى معجزات أبدا .

على الروائي أن يقضي حياته كلها في إعادة كتابة كل ما سبق بأشكال وصيغ مختلفة وفقا للمرحلة التي يعيشها وأن يضيف أشيه ويحذف أشيه وأن يستبدل الورق والأجندات ودفاتر الملاحظات التي يستخدمها في التوثيق بأخرى .. عليه أن يسخر دائما من كل ما يسجله ويتحسر عليه في نفس الوقت سواء تحقق أو لم يتحقق .. عليه لسبب أو لآخر وبينما يراجع الاحتياجات الملحة التي لم تتغير والتي ظل يذكر نفسه دائما بضرورة تحقيقها دون أن ينجح في ذلك ولو لمرة واحدة؛ عليه أن يستعيد إحدى تنبؤات (مارسيل بيفر) و(بيات زجراجن) :

(سوف يصير الهواء ثقيلا

وسيقع تحت أقدامنا) .

احتمال مستبعد

* * *

داخل مكان لا أعرفه .. وضعت صورهم جميعا بجوار بعضها : أبي .. أمي .. أختي .. صديق أبي .. عزفت بالترومبيت أمامهم اللحن الذي لم أنجح في ارتجاله بجنازاتهم .. الذي لن يتمكن أحد من عزفه بجنازتي .

* * *

فقط .. حاول أن يرمم بين السمه والأرض عينين غير مصدقتين، وحتى اللحظة الأخيرة كان لا يريد أن يتذكر أن ما بين السمه والأرض عيون قديمة لم تكن أيضا مصدقة.

* * *

أعضه وزوار منتدى (أضواء المنصورة) الكرام

نجح طاقمنا التقني خلال أقل من ساعة في استرداد المنتدى بعد قيام أحد الهاكر بالاستيلاء عليه، كما قام الطاقم بإنشاء نظام حماية متطور ستعجز معه أي محاولات مستقبلية لاختراق المنتدى .. نعتذر لحضراتكم عما حدث، وندعو في نفس الوقت لـ (عازف الترومبيت) ولأمثاله من المرضى بالشفاء العاجل، وننصحه أن يجرب طرقا أخرى للعلاج بعيدا عن هذه الحركات الصبيانية التي لا فائدة منها.

* * *

ممدوح رزق

كاتب مصري

من مواليد المنصورة في ٣ / ١ / ١٩٧٧

صدر له :

- قبل القيامة بقليل / قصص قصيرة - دار عرب للنشر والتوزيع ٢٠١١
- سوبر ماريو / رواية - دار ميتا للنشر والتوزيع ٢٠١٠
- النمو بطريقة طبيعية / مجموعة قصصية مشتركة - دار ملامح للنشر ٢٠٠٩
- بعد كل إغماءة ناقصة / نصوص - دار المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات ٢٠٠٩
- السيىء في الأمر / نصوص - دار أكتب للنشر والتوزيع ٢٠٠٨
- ملامح وعرة / ديوان شعر مشترك مع الشاعرين السوري (عبد الوهاب عزاوي) ، والعراقي (صلاح حسن) - اتحاد كتّاب الانترنت العرب ٢٠٠٥
- رعشة أصابعه .. روح دعابة لم تكن كافية لتصديق مزحة / نصوص - معابر ٢٠٠٤
- جسد باتجاه نافذة مغلقة / قصص قصيرة - أدب الجماهير ٢٠٠١
- احتقان / قصص قصيرة - سلسلة إبداعات (الهيئة العامة لقصور الثقافة) ٢٠٠١
- انفلات مصاحب لأشياء بعيلة / قصص قصيرة - مطبوعات إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) ١٩٩٨

دراسات:

ـ ٢٥ يناير : التاريخ .. الثورة .. التأويل / دراسات مشتركة ـ جماعة ديوجين البحثية ـ دار عرب للنشر والتوزيع ٢٠١١

ـ التجنيد الوهابي / دراسة في آليات السلطة للعقيلة الوهابية ـ مركز حجازنا للدراسات والنشر ـ الدار البيضاء / المغرب (طبعة أولى ٢٠٠٩)، (طبعة ثانية / دار عرب للنشر والتوزيع ٢٠١١)

ـ إعادة كتابة مصر / مقالات العام الأول من الثورة المصرية ـ جماعة ديوجين البحثية ٢٠١٢

تحت الطبع :

ـ مكان جيد لسلحفاة محنطة / مجموعة قصصية

ـ بعد صراع مع المرض / ديوان شعر

ـ موت النص / دراسات نقدية

ـ صندوق الذكريات / قصص قصيرة للأطفال

mamdouhrizk@yahoo.com
/http://www.shortstory77.blogspot.com

رقم الإيداع بدار الكتب
2012/11402
الترقيم الدولى I.S.B.N
978-977-374-957-3

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠٥٠ / ٢٢٦٦٢٢٠
٠١٢٢٢٦١٤٣٦٣

ayman_eid_74@yahoo.com



في "خلق الموتى" نرى لعبًا فنيًا بمشهدية الصورة السردية، لنصبح أمام خليط مدهش من الأشياء التي تتوازى وتتقاطع في آن. تتكئ المقاطع السردية في بنيتها على آلية كسر أفق التوقع لدى المتلقي، وبما يجعلنا أمام رواية تعتمد في الأساس على إعادة الاعتبار إلى اللعبة الجمالية، بوصفها غاية فنية، لنصبح أمام عدد من المقاطع السردية المخاتلة، والتي يهيمن عليها راوٍ ماكر، تشغله الاستطرادات ذات النزعة الفلسفية.

ينفتح النص على عدد من المشاهدات الحياتية، والخبرات القرائية والمعرفية، ليتضافر وعيان: قرائي وبصري، وتبدو الجملة ـ الصيغة "أهلًا ومرحبًا بكم" بمثابة جملة مركزية في السرد، يوظفها الكاتب ليكسر من خلالها الحائط الوهمي بينه وبين متلقيه، وبما يشي بأننا أمام توظيف واعٍ لحيلة بريخت الشهيرة، والتي يستخدمها رزق هنا ليحرق المراحل النفسية المتوهمة بينه وبين قارئه.

د. يسري عبد الله

صحيفة "الحياة" اللندنية